بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة يوسف -عليه السلام- وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} [سورة يوسف(١-٣)].

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقوله: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} أي: هذه آيات الكتاب وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها، {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدأ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قالوا: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لو قصصت علينا؟ فنزلت: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} يقول الحافظ -رحمه الله-: "**وهو القرآن المبين، أي: الوضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها**"، وهذا ظاهر الآية، ويحتمل أن يكون من أبان أو من بان بمعنى أنه ظاهر أمره؛ لأن الله -تبارك وتعالى- أنزله مبيناً، أو أنه مبينٌ لما فيه من الأحكام، وهذه المعاني جميعاً تحتملها هذه الجملة، وكلها صحيحة -والله تعالى أعلم-، فالقرآن مبينٌ لمن قرأه أو سمعه أنه من عند الله -عز وجل- وليس من كلام البشر، كما أنه مبين للأحكام، وأنه في غاية الوضوح، ليس فيه إلغاز ولا غموض، كما قال -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} [سورة القمر(١٧)].

وسبب نزول هذه الرواية التي ذكرها في قوله: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، لما سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- لا تخلو من ضعف، لكن ورد بسياق أطول من هذا عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- أنهم سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يحدثهم، فنزلت.

ثم سألوه أن يحدثهم فنزل قول الله: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} [سورة الزمر(٢٣)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [سورة يوسف(٤)].

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام-، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: رؤيا الأنبياء وحي، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه، روي هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش -وهو سريره- وإخوته بين يديه {وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [سورة يوسف(١٠٠)].

{قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [سورة يوسف(٥)].

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف -عليهما السلام- حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً، فخشي يعقوب -عليه السلام- أن يحدّث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدوه على ذلك فيبغوا له الغوائل حسداً منهم له، ولهذا قال له: {لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا} أي: يحتالوا لك حيلة يُرْدُونك فيها، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من شرها ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره))[١]، وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن من رواية معاوية بن حيدة القشيري -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر فإذا عُبرت وقعت))[٢].

هذا الحديث ضعفه بعض أهل العلم، وقال البعض: إنه من قبيل الحسن لغيره، ثم قالوا: إن أبا بكر -رضي الله عنه- طلب من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يعبر الرؤيا، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أذن له بهذا،

---

١ - رواه البخاري برقم (٦٦٣٧)، كتاب التعبير، باب إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها ولا يذكرها، ومسلم برقم (٢٢٦١) عن أبي سلمة -رضي الله عنه- بلفظ قال: " إن كنت لأرى الرؤيا تمرضني، قال فلقيت أبا قتادة فقال: وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني، حتى سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((الرؤيا الصالحة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها إلا من يحب، وإن رأى ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثاً، وليتعوذ من شر الشيطان، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره))، كتاب الرؤيا.

٢ - رواه أبو داود برقم (٥٠٢٠)، كتاب الأدب، باب ما جاء في الرؤيا، من حديث أبي رزين -رضي الله عنه-، وابن ماجه برقم (٣٩١٤)، كتاب تعبير الرؤيا، باب الرؤيا إذا عبرت وقعت فلا يقصها إلا على وادّ، وأحمد في المسند(٢٦/١٠٠)، برقم (١٦١٨٢)، وقال محققوه: حديث حسن لغيره، من حديث أبي رزين -رضي الله عنه-، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥٣٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فعبرها ثم سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- هل أصاب أو أخطأ؟، فأخبره أنه أصاب بعضاً وأخطأ في بعض، فلو كانت تقع بحسب ما حصل من تعبيرها فإن ذلك خلاف ظاهر الحديث، يعني لو كان كذلك فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يقره على هذا التعبير ولا يأذن له فيه؛ لئلا تقع على غير الوجه، ويحتمل أنها تقع على ما هي عليه ولو أخطأ المعبر في تفسيرها، ويحتمل أن تكون تقع بحسب ما فسرت، هذه بعض الروايات، وكلام بعض أهل العلم عليها في هذا الحديث.

قال الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى-: حدثنا هشيم قال: أخبرنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن عمه أبي رزين قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الرؤيا على رجل طير ما لم تُعبر فإذا عُبرت وقعت))، قال: ((والرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة))، قال: ((وأحسبه قال لا يقصها إلا على وادٍّ أو ذي رأي))[٣]، له شاهد من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه- عند الحاكم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الرؤيا تقع على ما تعبر، ومثل ذلك مثل رجُل رفع رجله فهو ينتظر متى يضعها، فإذا رأى أحدكم رؤيا فلا يحدث بها إلا ناصحاً أو عالماً))[٤] وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

وآخر من حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- عند الدارمي بسند حسنه الحافظ في الفتح، قالت: كانت امرأة من أهل المدينة لها زوج تاجر يختلف -يعني في التجارة- فأتت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: إن زوجي غائب وتركني حاملاً، فرأيت في المنام أن سارية بيتي انكسرت، وأني ولدت غلاماً أعور، فقال: خيرٌ يرجع زوجك إن شاء الله صالحاً وتلدين غلاماً برّا، فذكرت ذلك ثلاثا، فجاءت ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- غائب، فسألتها فأخبرتني بالمنام، فقلت: لئن صدقت رؤياك ليموتن زوجك وتلدين غلاماً فاجراً، فقعدت تبكي، فجاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((مه يا عائشة، إذا عبرتم للمسلم الرؤيا فاعبروها على خير، فإن الرؤيا تكون على ما يعبرها صاحبها))[٥].

وأخرج سعيد بن منصور بسند صحيح عن عطاء كان يقال: الرؤيا على ما أولت. قال السندي: قوله على رجل طير بكسر الراء، أي: كأنها معلقة برجل الطير، قيل هذا مثل، والمراد أنها لا تستقر قرارها ما لم تعبر، فإن الطير في غالب أحواله لا يستقر، فكيف ما يكون على رجله؟.

قوله: ما لم تُعْبَر، على بناء المفعول من عبَر كنصر، ويجوز التشديد، وقوله: جزء إلى آخره.

هذا المعنى الذي ذكر من كون الطائر لا يستقر وأنها لا تستقر إلى آخره، يعني أنها لا تقع بحسب التعبير، فلو أخطأ المخطئ في تعبيرها كما أخطأ أبو بكر -رضي الله عنه- في بعض ما عبر فيه تلك الرؤيا، فهؤلاء يقولون: إنها تقع بحسب معناها وليس بحسب ما عُبرت به.

---

٣ - رواه أحمد في المسند (١٠٠/٢٦)، برقم (١٦١٨٢)، وقال محققوه: حديث حسن لغيره.

٤ - رواه الحاكم في المستدرك (٤٣٣/٤)، برقم (٨١٧٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٢٠)، وصححه في صحيح الجامع (١٦١٢).

٥ - رواه الدارمي في سننه (١٧٤/٢)، برقم (٢١٦٣)، وقال محققه حسين سليم أسد: إسناده رجاله ثقات غير أن ابن إسحاق قد عنعن، ومع ذلك فقد قال الحافظ في الفتح: إسناده حسن، قلت: وكذا قال الأرنؤوطان في تحقيق زاد المعاد: إسناده حسن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: جزء إلى آخره: حقيقة التجزؤ لا تدرى، والروايات أيضاً مختلفة، والقدر الذي أريد إفهامه هو أن الرؤيا لها مناسبة بالنبوة من حيث إنها اطلاع على الغيب بواسطة الملَك إذا كانت صالحة، فعن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الرؤيا معلقةٌ برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها، فإذا حدث بها وقعت ولا تحدثوا بها إلا عالماً أو ناصحاً أو لبيباً، والرؤيا الصالحة جزءٌ من أربعين جزءاً من النبوة))[٦].

قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- في التمهيد: اختلاف آثار هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا من النبوة ليس ذلك عندي باختلاف تضاد وتدافع -والله أعلم-؛ لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على ستة وأربعين جزءاً، أو خمسة وأربعين جزءاً، أو أربعة وأربعين جزءاً، أو خمسين جزءاً أو سبعين جزءاً على حسب ما يكون الذي يراها من صدق الحديث وأداء الأمانة والدين المتين وحسن اليقين، فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد -والله أعلم-، فمن خلصت له نيته في عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب، كما أن الأنبياء يتفاضلون، والنبوة كذلك -والله أعلم-.

{وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [سورة يوسف(٦)].

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف -عليهما السلام-: إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك، {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ} أي: يختارك ويصطفيك لنبوته، {وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ} قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبير الرؤيا {وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ} أي: بإرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: {كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ} وهو الخليل -عليه السلام- {وَإِسْحَقَ} ولده -عليه السلام-، {إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} أي: هو أعلم حيث يجعل رسالته، كما قال في الآية الأخرى.

في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ}** يحتمل أن يكون المراد كما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو الظاهر المتبادر، وهو الذي دلَّ عليه القرآن، فالله -عز وجل- علم يوسف -صلى الله عليه وسلم- تعبير الرؤى كما قال -تبارك وتعالى-: **{وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ}** [سورة يوسف(٢١)]، وهكذا قوله -صلى الله عليه وسلم- في هذه السورة فيما ذكره الله -عز وجل-: **{وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ}** [سورة يوسف(١٠١)]، ومعلوم ما وقع له مع صاحبيه في السجن، قال: **{يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ...}** [سورة يوسف(٤١)] إلى آخر ما ذكر، وفي رؤيا الملك قال لهم: **{تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا...}** [سورة يوسف(٤٧)] الآية، فهذا هو الظاهر الذي دلت عليه هذه الآيات في هذه السورة، ويحتمل أن يكون المراد بتعبير الأحاديث أي الكلام -والله -عز وجل- وصف كتابه بقوله: **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ}** [سورة الزمر(٢٣)]- وما جاء في سنن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فتعليمه لتأويل الحديث يعني ما نزل من كتب الله -عز وجل- وما جاء أيضاً من سنن الأنبياء، فهذا معنى تحتمله الآية والله -عز وجل-

---

٦ - رواه أحمد في المسند من حديث أبي رزين -رضي الله عنه- (١٠٣/٢٦)، برقم (١٦١٨٣)، وقال محققوه: حديث حسن لغيره.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا}[سورة يوسف(٢٢)]، والمعنى الأول هو الظاهر والأقرب وعليه عامة أهل العلم، بل إن من أهل العلم من نقل على هذا الإجماع، ولكن هذا الإجماع قد يقصد به قول أكثر المفسرين، وإلا فإن منهم من قال غيره، والعلامة الشنقيطي -رحمه الله- ذكر المعنيين وقال: إن الآية تحمل عليهما، فالآية التي تحتمل معنيين ويدل على كل واحدٍ منهما دليل من القرآن فأكثر، لا يوجد مانع من حملها على هذه المعاني، فتحمل عليها.

لكن قوله -تبارك وتعالى-: {آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} قد لا يكون دليلاً واضحاً فيما ذكر من أن المقصود بتأويل الأحاديث تفسير الكتب التي أنزلها الله -عز وجل- أو كلام الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

فالأقرب -والله تعالى أعلم- أن يحمل ذلك على المعنى الأول.

{لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ من بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} [سورة يوسف(٧-١٠)].

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات أي عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه، {إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا} أي: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه.

القسم ينقسم إلى قسمين: ظاهر، ومضمر، فالمضمر من القسم هو ما حذف منه فعل القسم وحرف القسم والمقسم به، هذا يقال له مضمر، ويستدل عليه باللام مثلاً {إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ} والتقدير أنهم قالوا: والله ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا.

وقوله: {لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ} أي: للسائلين عن خبره، بعضهم يقول: هذا في النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: لكل من سأل عنه أو طلب هذا، وبعضهم يذكر بعض المرويات التي لا تصح من أن بعض اليهود سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن خبره اختباراً له، فالله -عز وجل- أطلق هذا {آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ} بما تضمنته هذه السورة من الأمور العجيبة والعواقب الحميدة، وما يدبره الله -عز وجل- لأوليائه وما يحصل لهم من الابتلاء، ونقلهم من حال إلى حال، ومن طورٍ إلى طور، حتى يبلغوا ألوان الكمالات، إلى غير ذلك من العجائب الموجودة في هذه السورة.

قوله عن بنيامين: "**وكان شقيقه لأمه**"، هذا جاء في بعض الروايات وهي متلقاة عن بني إسرائيل، كان شقيقه لأمه بمعنى أن شقيقه لأمه هو شقيقه لأمه وأبيه، ويقصد أن بقية الإخوة كانوا من أم أخرى، وبعض الروايات فيها غير هذا، -فالله تعالى أعلم-.

{أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ} أي جماعة، فكيف أحب ذيْنك الاثنين أكثر من الجماعة؟ {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} يعنون في تقديمهما علينا ومحبته إياهما أكثر منا.

الضلال في القرآن يأتي لمعنيين، المعنى الأول هو الغالب في الاستعمال وهو الذهاب عن الحق، هذا أكثر ما ورد فيه الضلال في القرآن {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [سورة الفاتحة(٧)]، و{رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[سورة الأعراف(٣٨)]، {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} [سورة الصافات(٧١)]، وهم لا يقصدون هذا؛ لأنهم لو قصدوا هذا كفروا، كيف يقولون عن نبي كريم: إنه في ضلال، وإنما يقصدون المعنى الآخر الذي ربما يكون هو أصل معناه في لغة العرب، وهو الذهاب عن حقيقة الشيء مطلقاً، فهو في ضلالٍ مبين، وكما قالوا أيضاً {لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ} [سورة يوسف(٩٥)]، يعني الذهاب عن الحق في حقيقة ما وقع ليوسف -عليه الصلاة والسلام- هكذا، {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، أي: في ذهابٍ عن الحق في هذا التصرف والنظر، حيث آثر اثنين على هؤلاء العصبة، والعصبة أكثر نفعاً ودفعاً، وهؤلاء صغار، فكيف يؤثرهم على البقية؟.

هذا هو المقصود وهذا معنىً معروف في كلام العرب، كما جاء كثيراً في أشعارهم، ومن ذلك قولهم: ضل اللبن في الماء، يعني ذهب، أو ضل الماء في اللبن يعني ذهب، واختلط به، ولم يتميز، وهكذا يقال عن دفن الميت: إنه إضلال له؛ لأن هذا الميت يغيب في التراب.

فآبَ مُضلِّوه بعينٍ جليةٍ ***وغودر بالجولان حزمٌ ونائلُ

يعني بمضلوه أي دافنوه.

وقول الشاعر عندما يذكر الأطلال

ألم تسأل فتخبرك الديار***عن الحي المضلل أين ساروا

فالحي العرب، والمضلل يعني الذاهب، أين ساروا يعني الذين ذهبوا.

فالمقصود بقوله: {لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} أي: ذهابٍ عن الحق في هذه القضية بعينها.

قوله: {وَنَحْنُ عُصْبَةٌ} أي: ونحن جماعة، البعض يقول هم العشرة فما فوق، وقيل: من العشرة إلى الخمسة عشر هؤلاء يقال لهم عصبة.

{اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ} يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم أعدموه من وجه أبيكم ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه وتخلوا أنتم بأبيكم.

قوله: {اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا} ربما يكون هذا باعتبار اختلاف الأقوال، وليس باعتبار أن القائل واحد يقول اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً، وإنما هذا مجموع الأقوال، والمعنى: اطرحوه أرضاً بعيدة لا يحصل له الرجوع بعد ذلك؛ لأن هذا الأب قد شغل عن هؤلاء الأولاد العصبة بهذين الولدين، هكذا في نظرهم، وأن هؤلاء قد استحوذوا على اهتمامه، شغلوا قلبه عنهم، فهم يقولون {يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ} إذا تخلصتم من هؤلاء لم يكن لهذا الأب سواكم، فتستحوذوا على همه، وهذا كله من العجائب التي في قصة يوسف -عليه الصلاة والسلام-، فهؤلاء ليسوا بأناسٍ صغار، هؤلاء رجال كبار، وقيل: إنهم كانوا أنبياء، وهذا فيه بعد، يعني قد يكون حصلت لهم نبوة بعد ذلك، لكن كيف يقع من أنبياء محاولة قتل، أو التفكير في قتل أخ لهم، وهذا العقوق العظيم للأب، والكذب، هذا لا يقع من أنبياء، وإن قال بهذا بعض أهل العلم، فمهما يكن هؤلاء أولاد نبي كريم، وابن نبي ابن نبي، نسب ممتد بأنبياء، وجدهم إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو أبو الأنبياء، ومع ذلك يقع منهم مثل هذا، نبي قام بتربيتهم ومع ذلك وصل بهم الأمر إلى هذا الحد، محاولة القتل أو الإلقاء في البئر، فلا يمكن للإنسان أن يفعل عشر معشار هذا بأبعد الناس إليه، فكيف يفعله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأقرب الناس إليه؟، وصغير يريدون قتله أمر عظيم وشنيع فهذه الغيرة وقعت من هؤلاء مع اجتماع هذه الأمور، ليسوا بأطفال، فهذا يدل على أن مثل هذه الأمور يجب مراعاتها في تربية الأولاد، أو التعامل مع الناس المشتركين في شيء واحد؛ لأن هذا يحرك الغيرة في نفوسهم، سواء كانوا صغاراً أو كباراً، إذا رأوا إيثاراً لأحدٍ منهم.

وهذه الأشياء التي ذكرها الله -تبارك وتعالى- عنهم بأنهم يريدون أن يفعلوا كل هذا، ثم يريدون أن يكونوا من بعده صالحين، على القول بأن المراد بذلك التوبة، كيف يقدم الإنسان على هذا ويرجو لنفسه التوبة بعده؟، وقول يعقوب -صلى الله عليه وسلم- منذ البداية لولده: {لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا} وهذا لم يكن مستبعداً عند يعقوب -عليه الصلاة والسلام-؛ لذلك من الخطأ أن الإنسان يتحدث عن أمورٍ حباه الله -عز وجل- بها واختصه بها عند كل أحد، يعني من الناس من يتحدث عن أشياء كثيرٌ من الناس قد فقدوها، من حاله وما حصل له من التوفيق في تجارته، وفي زواجه وفي دراسته وفي كذا، فهذا يحرك كثيراً من النفوس.

والتحدث بنعمة الله -عز وجل- يمكن أن يحصل على سبيل الإجمال، لا يجحد ولا ينكر كما يفعل بعض الناس، والله المستعان.

{وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} فأضمروا التوبة قبل الذنب.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- اختاره جماعة، منهم كبير المفسرين ابن جرير أنهم أرادوا أن يفعلوا الذنب ويتوبوا من بعده، فيكونوا قوماً صالحين، يعني بالتوبة، وبعضهم يقول {وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} يعني في أمور دينكم، وقيل: في دنياكم، {تَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} يعني تصلح لكم الحياة وأمور المعاش والعلاقة بالأب، فلا تبقى حالكم بهذه المثابة من اشتغال قلب أبيكم بيوسف وأخيه، فهذا الذي قد شغله عنكم يذهب، وبعد ذلك يكون نظره إليكم، فأفكارهم يحركها الحسد والضغائن التي تقع في نفوسهم وتتجدد كلما رأوا هذا الوالد قد اهتم به وأولاه عنايةً.

{قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ} قال قتادة ومحمد بن إسحاق: وكان أكبرهم واسمه روبيل، وقال السدي: الذي قال ذلك يهوذا، وقال مجاهد: هو شمعون الصفا.

هذا من الإسرائيليات التي لا فائدة من ذكرها، والتي كان ينبغي أن يخلو عنها هذا المختصر.

{لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ} أي: لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب، وهو أسفله.

الغيابة: كل شيء غيّب غيره يقال له غيابة؛ ولهذا جاء في سورة البقرة وآل عمران: ((كأنهما غيابتان))[٧] وفي صحيح مسلم عن أبي أمامة الباهلي -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران،

---

٧ - صححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٣٩٥٤)، من حديث النواس بن سمعان -رضي الله عنه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة))[٨]، فكل شيء غيّب غيره فإنه يقال له غيابة، و{غَيَابَةِ الْجُبِّ} الجب هو البئر العميقة جداً، بحيث إذا نظرت إلى قعرها فإنك لا تبصرها؛ لعمقها.

{يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ} أي: **المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله.**

السيارة من السير، الجمع الذين يسيرون مع بعضهم يقال لهم سيارة، يسيرون في الطريق فيأخذونه، وبعضهم يفسر الالتقاط بمعنىً أخص من مجرد الأخذ، وهو أخذ الشيء من مضيعة، الشيء المشرف على الضياع يقال له التقاط، والتقط؛ ولهذا يقال لقطة، ولقيط.

{إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} أي: **إن كنتم عازمين على ما تقولون.**

قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد وقلة الرأفة بالصغير الضَّرَع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده؛ ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنه ورقة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه.

يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين فقد احتملوا أمراً عظيماً، رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه.

---

٨ - رواه مسلم برقم (٨٠٤)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالُواْ يَآ أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [سورة يوسف(١١- ١٢)].

لما تواطئوا على أخذه وطرحه في البئر -كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل- جاءوا أباهم يعقوب -عليه السلام- فقالوا: ما بالك {لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ} وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له {أَرْسِلْهُ مَعَنَا} أي ابعثه معنا غداً نرتع ونلعب، وقرأ بعضهم بالياء {يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يسعى وينشط، وكذا قال قتادة والضحاك والسدي وغيرهم، {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ}: "**يسعى وينشط**"، روي هذا عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قيل هذا من مأخوذٌ من رتْع البعير -رتعت الدواب يعني إذا أكلت كيف شاءت-؛ ولهذا يعبر به عن الاتساع في الخصب، الدواب ترتع بمعني أنها تأكل من النبات كيف شاءت، وهذه العبارة التي ذكرها هنا قال: يسعى وينشط، أو على قراءة نرتع ونلعب أي نسعى وننشط، يعني نلهو ونلعب وما أشبه ذلك، هذا قال به كثيرٌ من المفسرين، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-.

وبعضهم نظر إليه من جهةٍ ثانية نرتع ونلعب قال: أي نتحارس ويحفظ بعضنا بعضاً، وهذا قالوا: إنه كقولك رعاك الله، فإنه يعبر بذلك عن الحفظ والحراسة يعني حفظك الله وحرسك ورعاك، فهذه اللفظة أصلها من رتعت الدابة، فيعبر بذلك عن الحفظ والحراسة والرعاية وما أشبه ذلك، فهذا وإن قال به بعض أئمة اللغة إلا أنه لا يخلو من بُعد في تفسير الآية -والله تعالى أعلم-، فالمقصود أن مثل هذه يعبر بها عن معنى الاتساع في اللهو واللعب والأكل وما أشبه ذلك، وهذا اللعب فسره بعض أهل العلم بالمسابقات في الرمي، كما سيأتي في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ} [سورة يوسف(١٧)]، فعلى كل حال المقصود به اللعب المباح.

وكما هو معلوم أنه ليس كل لعبٍ باطل بإطلاق.

{قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ} [سورة يوسف(١٣- ١٤)].

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء {إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ} أي: يشق عليّ مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال في الخَلْق والخُلُق -صلوات الله وسلامه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليه -، وقوله: {وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ} يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة {لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ} يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذاً لهالكون عاجزون.

يعني كيف يتمكن الذئب من الوصول إليه ونحن بهذا العدد من الرجال؟، فهذا عجزٌ وضعف وخسران، وقوله: {إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ} معروف أن الحزن هو الاغتمام من أمرٍ فائت، وأما الخوف فهو الاغتمام من أمرٍ مستقبل، هذا هو الفرق بينهما كما هو مشهور، وقد يعبر بأحدهما عن الآخر، وهو قليلٌ في الاستعمال، ومنه هذا الموضع، عبر بالحزن عن الخوف {إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ} يعني أنه يتخوف عليه من أمرٍ يحصل في المستقبل، كأكل الذئب له.

{فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [سورة يوسف(١٥)].

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك {وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ} هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه -فيما يظهرونه له- إكراماً له وبسطاً وشرحاً لصدره وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب -عليه السلام- لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له.

قوله: {فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ} هذا شرط فأين جوابه؟ بعض أهل العلم يقول: الجواب مقدر، وتفاوتت عباراتهم في هذا المقدر، فمن ذلك قول من قال بأنه فعلوا ما فعلوا {فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ} فعلوا ما فعلوا، يعني ألقوه في الجب، وبعضهم يقول غير ذلك في التقدير، ومن أهل العلم من قال بأن الجواب مذكور، وهذا الجواب هو قوله: {وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ}، وقالوا إن الواو هنا صلة، ويقصدون بـــ صلة أنها زائدة، وهذا يقع في كلام العرب، بمعنى أنهم لما ذهبوا به وهم مجمعون على أن يجعلوه في غيابة الجب أوحى الله إليه في هذه الأثناء بهذا الوحي {لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا}، {وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ}.

فذكر السدي وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه، فربطوه بحبل ودلوه فيه فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراغوفة فقام فوقها.

هذا لا يعتمد عليه؛ لأنه من الإسرائيليات.

وقوله: {وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطييباً لقلبه وتثبيتاً له، إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع، وقوله: {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك.

هذا هو المشهور، وهو المتبادر من السياق، أن الله أخبره بما سيجري في العاقبة في المستقبل، بمعنى أن هذا الإلقاء في البئر، أو أن هذه المؤامرة لن تودي به إلى التلف، وإنما سيكون له من ذلك فرجٌ ومخرج {لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} فهذا وعدٌ من الله -عز وجل- له بما سيكون في المآل بينه وبين إخوته، وهذا هو الذي حصل وهو ما ذكره الله -عز وجل- بعد ذلك في آخر هذه القصة لما قال لهم يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ} [سورة يوسف(٨٩)]، فقالوا له: {أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا} [سورة يوسف(٩٠)]، فالشاهد أنه أخبرهم بهذا، ثم قالوا له: {تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا} [سورة يوسف(٩١)]، ثم قال لهم: {لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ} [سورة يوسف(٩٢)]، فالشاهد أنه أخبرهم بهذا كما وعده الله -تبارك وتعالى-، والمقصود بقوله: {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} يعني حينما قال لهم ذلك ودخلوا عليه، حينما كان هو العزيز في مصر ما كانوا يعرفون أنه يوسف، فلما سألهم وقال لهم هذا الكلام عرفوا بعد ذلك {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} نبأهم بهذا وهم لم يشعروا أنه يوسف.

ومن أهل العلم من يقول: إن قوله: {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} يعود إلى الوحي، يعني وأوحينا إليه وهم لا يشعرون، يعني بإيحائنا في هذه الأثناء، ما علموا أن الله أوحى إليه، لكن هذا فيه بعد، والأقرب هو الأول كما يدل عليه ظاهر القرآن.

{وَجَآءُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ * قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَآءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [سورة يوسف(١٦-١٨)].

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا {إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ} أي: نترامى.

نستبق بمعني نترامى، يعني نَنْتَضِل، يعني نرمي بالسهام، وبالنبال، وهذا يدل عليه قراءة ابن مسعود -رضي الله عنه- وهي ليست من القراءات المتواترة بطبيعة الحال "نَنْتَضِل"، وكما سبق أن القراءة الأحادية تفسر القراءة المتواترة، "ننتضل"، والانتضال هو الرمي بالسهام، كما أن الرهان يقال للمسابقة في الخيل، والسباق يشمل ذلك جميعاً كما قال بعض أئمة اللغة كالأزهري، ويحتمل أن يكون ذهبنا نستبق: يعني نعدو على الأقدام، لكن الأول أولى؛ لدلالة القراءة التي أشرت إليها والله تعالى أعلم {نَسْتَبِقُ} يعني ننتضل، وهو بمعنى قوله هنا: أي نترامى.

{وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا} أي: ثيابنا وأمتعتنا {فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ} وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه، وقوله: {وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} تلطفٌ عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا -والحالة هذه- لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك؟؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعني أنه حذرهم وقال: إني أخاف أن يأكله الذئب، فقالوا له: نحن عصبة وكيف يأكله الذئب من بيننا؟، ثم يأتون إليه ويقولون له: أكله الذئب، فهذا أمرٌ كيف يصدق وكيف يقبل وهم قد ذكروا له ما يدل على بُعده ونفيه؟، ثم يحتجون به، لكنهم تلقوا هذه الحجة منه، عندما قال لهم: أخاف أن يأكله الذئب، وكأن ذلك من الشيء الذي لهم به عهد، يعني ربما كانوا يحدثونه عن ذئبٍ إذا خرجوا يعرض لهم أو نحو ذلك، فقال: أخاف أن يأكله الذئب، وتكون "ال" عهدية، الذئب المعهود، وربما يكون المكان الذي يذهبون إليه أصلاً كثير الذئاب، لكن لو كان كذلك لقال: أخاف أن يأكله ذئبٌ، لكن حينما يقول: أخاف أن يأكله الذئب، فهو ذئب معهود، كأنهم حدثوه عنه، والذئب معروف، حتى إنه قيل له ذلك لأنه يأتي من كل وجه، يأتي وهو كثير الحركة والانتقال، وخفيف في هذا جداً، فيأتي من هنا ويأتي من هنا، ويذهب من هنا ويرجع من هنا، فتارةً يأتي من الجنب وتارة من الناحية الأخرى، وتارةً من الخلف، وتارة.. لا يفْتُر، إذا دفعته من جهة لا تشعر إلا بمجيئه من جهة أخرى، فقيل له ذلك، والله أعلم.

{وَجَآءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ} أي: مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة.

قال بعض أهل العلم في قوله: "كَذِب": إن "فَعِل" هنا بمعنى مفعول، "دمٍ كذب" أي دمٍ مكذوب، ولكن لو أخذنا ظاهر اللفظ {بِدَمٍ كَذِبٍ} هنا وصف اسم العين باسم المعنى، فالدم عين والكذب معنى، فهنا وصف اسم العين الذي هو الدم باسم معنى، بأنه كذب، يعني من الممكن أن يقال: بدمٍ طري مثلاً، ولهذا جاء في قراءة غير متواترة "كَذِب" بالدال، ومعنى "كدب" يعني طري، دم جديد رطب، بدمٍ كدب، فهنا يكون وصْفُه على هذه القراءة وصفَ اسم العين باسم عينٍ، لكن "كذب" هذا اسم معنى، فإذا حصل ذلك في كلام العرب فإنه يكون من المبالغة في تأكيد الشيء، وشدة ارتباطه بهذه الصفة، يعني كأن هذا الدم هو عين الكذب.

وهو أنهم عمدوا إلى سخلة -فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد- فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه؛ فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} أي: فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، {وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال.

{قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا} سولت بمعنى سهلت وزينت، وأصل ذلك يقال: التسويل هو تقرير معنىً في النفس، يطمع صاحبه بإتمامه، {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} يحتمل أن يكون المبتدأ محذوفاً، أي فشأني صبرٌ جميل، أو صبري صبرٌ جميل، أو الذي أنا عليه صبرٌ جميل، ويحتمل أن يكون الخبر هو المحذوف، أي صبرٌ جميل صبري، والصبر الجميل هو الذي لا جزع معه ولا شكاية، والهجر الجميل هو الهجر الذي لا يكون معه أذى، والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} [(١٩-٢٠) سورة يوسف].

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف -عليه السلام- حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الجب وحيداً فريداً، فمكث -عليه السلام- في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش، وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون ماذا يَصنع وما يُصنع به، فساق الله له سيارة فنزلوا قريباً من ذلك البئر وأرسلوا واردهم وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف -عليه السلام- فيها فأخرجه واستبشر به وقال: {يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ}.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قوله: {وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً} يعني: إخوة يوسف أسروا شأنه وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع، فذكره إخوته لوارد القوم فنادى أصحابه {يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ} يباع فباعه إخوته.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ} [(١٩) سورة يوسف]، السيارة هم المجموعة من الرفقاء المسافرين السفر، وقول ابن كثير –رحمه الله-: "**فمكث -عليه السلام- في البئر ثلاثة أيام**" هذه الرواية مما أخذ عن بني إسرائيل.

وقد قصد إخوة يوسف وضْعه في مكانٍ يمر عليه المسافرون؛ لأنهم قالوا: {وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ} [(١٠) سورة يوسف]، فهو في مكانٍ يأتيه الناس من أجل أن يستقوا منه الماء، والله تعالى أعلم.

قوله –تبارك وتعالى-: {فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ} [(١٩) سورة يوسف]، أي: أرسلوا الذي يستقي لهم الماء {فَأَدْلَى دَلْوَهُ} والدلو هو ما يستقى به، قال: {يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ} وقرأ الجمهور {يا بشراي}.

والنداء في قوله: {يَا بُشْرَى} هو للبشرى وهذا معروف في كلام العرب، خلافاً لمن زعم أن قوله: {يَا بُشْرَى} نداء لرجل اسمه بشرى، وهذا القول وإن قال به بعض السلف إلا أنه بعيد غاية البعد، وهو من غرائب التفسير ولا يدل عليه السياق.

قوله: {وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً} [(١٩) سورة يوسف] أي: أسروه حال كونه بضاعة، ومعنى أسروه أي: أنهم كتموا أمره، والضمير في قوله: {وَأَسَرُّوهُ}، يحتمل أن يكون راجعاً إلى إخوة يوسف، وهذا هو اختيار ابن كثير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

–رحمه الله- وقد ذكر رواية العوفي عن ابن عباس –مع ضعف هذه الرواية- فقال: "**يعني: إخوة يوسف أسروا شأنه وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته واختار البيع فذكره إخوته لوارد القوم فنادى أصحابه {يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ} يباع فباعه إخوته**"، وقد جاء في بعض الروايات الإسرائيلية أنهم قالوا: هذا مملوكٌ لنا آبق، فلما استُخرج من البئر باعوه من المسافرين، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله: {وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً} راجعاً إلى الوارد المستقي وأصحابه من التجار، وهذا اختيار ابن جرير –رحمه الله-.

قوله –تبارك وتعالى-: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} [(٢٠) سورة يوسف] يحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى إخوة يوسف، وهو اختيار ابن جرير –رحمه الله- ومعنى {وَشَرَوْهُ} أي: باعوه، ويرجح هذا المعنى قوله: {وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ}، وهم إخوة يوسف، أما الذين وجدوه فقد حرصوا عليه غاية الحرص، ويحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى الذين وجدوه في غيابة الجب.

وقوله: {وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} أي: عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [(٥٤) سورة الأعراف].

قوله: {وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}، أي: عليمٌ بمكر إخوة يوسف، فهو عليم بكل شيء، وقد تجلى هذا العلم في هذه القضية عن هذه العواقب العظيمة، وما وقع ليوسف -عليه الصلاة والسلام- من ألوان البلاء من إلقائه في البئر، ودخوله في السجن بتهمة سيئة في غاية السوء، ويبقى في هذا السجن هذه السنوات الطويلة.

وقد قال بعض أهل العلم: إن نعمة خروج يوسف –صلى الله عليه وسلم- من السجن أعظم من نعمته عليه بخروجه من البئر.

وفي هذا تعريض لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- وإعلام له بأنّي عالم بأذى قومك لك وأنا قادرٌ على الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

وقوله: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ} [(٢٠) سورة يوسف]، يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل، قاله مجاهد وعكرمة، والبخس: هو النقص، كما قال تعالى: {فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا} [(١٣) سورة الجن] أي: اعتاض عنه إخوته بثمن دون قليل، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين أي ليس لهم رغبة فيه بل لو سُئلوه بلا شيء لأجابوا، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك: إن الضمير في قوله: {وَشَرَوْهُ} عائد على إخوة يوسف.

قوله: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ} أي: بثمنٍ قليل، وقال بعض أهل العلم: أي بثمنٍ يحرم عليهم أخذه، فقد باعوا حراً كريماً نبياً وهو أخٌ لهم بثمنٍ بخس، كما قال الشاعر:

بدلتُ بالجمة رأساً أزعرا***وبالثنايا الواضحات الدردرا

كما اشترى المسلم إذا تنصرا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ} الدراهم هي التي توزن، أما إذا كانت قليلة فالعادة أنها تعد ولا توزن فإذا بلغت أربعين درهماً فإنها توزن.

وكانوا قد باعوه بأنقص الأثمان ولهذا قال {دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ} فعن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: باعوه بعشرين درهماً.

وكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي وزاد: اقتسموها درهمين درهمين، وقال الضحاك في قوله {وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله -عز وجل-.

{وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [(٢١، ٢٢) سورة يوسف].

يخبر تعالى بألطافه بيوسف -عليه السلام- أنه قيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه وأوصى أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح، فقال لامرأته: {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}.

معنى {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ} أي: أكرمي منزله بالطعام الطيب واللباس الحسن، وهيئي له ما يحتاج إليه من أطايب اللباس والطعام.

وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها، وقال أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ}، والمرأة التي قالت لأبيها {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ} [(٢٦) سورة القصص] الآية، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنهما-.

يقول تعالى: كما أنقذنا يوسف من إخوته {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ} يعني بلاد مصر، {وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ} قال مجاهد والسدي: هو تعبير الرؤيا.

تأويل الأحاديث هو تعبير الرؤى، وذكر بعض السلف أن الأحاديث هي الكتب التي أنزلها الله –تبارك وتعالى- على أنبيائه –عليهم الصلاة والسلام- ولذلك سمى الله –عز وجل- القرآن حديثاً، قال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا} [(٢٣) سورة الزمر]، ولكن السياق يدل على أن المقصود بتأويل الأحاديث هو تفسير الرؤى، وقد قال الله في آخر هذه السورة: {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ} [(١٠٠) سورة يوسف].

{وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ} أي إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف بل هو الغالب لما سواه، قال سعيد بن جبير في قوله: {وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ}: أي فعَّالٌ لما يشاء، وقوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} يقول: لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد، وقوله: {وَلَمَّا بَلَغَ} أي يوسف -عليه السلام- {أَشُدَّهُ} أي استكمل عقله وتم خلقه.

قول ابن كثير "**{أَشُدَّهُ} أي استكمل عقله وتم خلقه**" هو تفسير حسن، وقد قال بعض أهل العلم: إذا بلغ الإنسان الثامنة عشرة فقد بلغ الأشد، وقال بعضهم: بلوغ الأشد ببلوغ الحلم، وقال بعضهم: ببلوغ الخامسة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والعشرين، وقال بعضهم: بلوغ الأشد ببلوغ الأربعين، وقيل خمسين سنة، واختار ابن جرير أن بلوغ الأشد من الثامنة عشرة إلى الستين.

{آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} يعني: النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام.

قال بعضهم: الحكم والعلم هما النبوة، وقال بعض أهل العلم: الفهم والعلم، وبعضهم يقول: يعني الحكم بين الناس، والأقرب -والله أعلم- أن الحكم والعلم هما النبوة

{وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي إنه كان محسناً في عمله عاملاً بطاعة الله تعالى.

ليس معنى ذلك أن من كان محسناً يعطى النبوة، وإنما النبوة هي موهبة إلهية لا يصل إليها الإنسان مهما كان عمله وجدّه واجتهاده وتهذيبه، وهذا قول المسلمين، ويوجد من قال من الفلاسفة: إن النبوة قضية كسبية، وإن الإنسان إذا ترقى في مدارج الكمال والتهذيب فإنه يصل إلى هذا بكسبه، وهذا الكلام من أبطل الباطل، فالله -عز وجل- يصطفي من عباده ما شاء لهذا الأمر {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [(٧٥) سورة الحج].

ومعنى قوله: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي: بما يدبره الله -عز وجل- لهم، ويجعل العاقبة الحميدة لهم دائماً، وينجيهم، ويحصل لهم من ألوان الكرامات والمنح الإلهية، ومن أهل العلم كابن جرير من خصه بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} أي: النبي -صلى الله عليه وسلم- كما فعلنا ذلك بيوسف كذلك نفعل بك، ونجعل العاقبة لك، وننصرك على قومك ونظهرك عليهم، والراجح –والله أعلم- أن الآية عامة.

(مسألة)

ابتداء يوسف -عليه السلام- بدعوة من كان في السجن إلى توحيد الله –عز وجل- لم يكن بوحي؛ لأن يوسف –عليه السلام- كان قد نشأ وتربى على التوحيد فهو ابن نبي، ولهذا قال: {إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} [(٣٧) سورة يوسف].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} (٢٣)}.

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف -عليه السلام- في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أي حاولته على نفسه ودعته إليها؛ وذلك أنها أحبته حباً شديداً؛ لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلّقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها، {وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ}، المراودة: هي الإرادة، والمحاولة برفق ولين، فقد حاولت امرأة العزيز من أجل أن يتحقق مطلوبها، ومن أهل العلم من يقول: إنه مأخوذ من الرود وهو الرفق واللين، وبعضهم يقول: من راد يرود إذا ذهب وجاء، ففعلت هذا الفعل كالذي يذهب ويجيء ويتردد من أجل أن يحقق مأربه، يعني كأنها فعلت فعل المخادع، وقد قال الله -عز وجل-: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا}، ولم يقل امرأة العزيز، فالآية فيها زيادة تقرير، وفيها محافظة على الستر.

قوله: {وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ}، غلّق: على وزن فعّل تدل على التكثير، بخلاف أغلق فإنه يدل على القلة أو على المرة الواحدة، لو قال: وأغلقت الأبواب.

{وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ}، **فامتنع من ذلك أشد الامتناع، وقال:** {مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ}، **وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير، أي: إن بعلك ربي** {أَحْسَنَ مَثْوَايَ} **أي: منزلي، وأحسن إليّ فلا أقابله بالفاحشة في أهله،** {إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}، **قال ذلك مجاهد والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم.**

قوله: {إِنَّهُ رَبِّي}، أي: العزيز، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وهذا القول لا إشكال فيه؛ لأن كلمة الرب تأتي لمعانٍ متعددة، وقد ذكر منها بعض أهل العلم سبعة، فمن معاني كلمة الرب السيد، ومن معانيها المتصرف، ومن معانيها المربي، ومن معانيها المالك، فيوسف -عليه الصلاة والسلام- بيع للعزيز كما هو معلوم، فهو مملوك، وما ورد من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال ((لا يقل أحدكم أَطْعِم ربَّك وضّئ ربك اسق ربك، وليقل سيدي مولاي، ولا يقل أحدكم عبدي أمتي، وليقل فتاي وفتاتي وغلامي))[1] ، هو من باب الأدب، وإلا فإن ذلك ليس بمحرم.

---

[1] -رواه البخاري، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي (٢ / ٩٠١)، برقم (٢٤١٤)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد (٤ / ١٧٦٤)، برقم (٢٢٤٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقيل في معنى قوله –تبارك وتعالى-: {إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ} أي: الله، لكن الأشهر والأقرب –والله أعلم- أنه قصد العزيز، ويدل على ذلك قول العزيز لامرأته: {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ} [(٢١) سورة يوسف].

وقد اختلف القراء في قوله: {هَيْتَ لَكَ}، فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها، وقال البخاري: وقال عكرمة: {هَيْتَ لَكَ} أي: هلم لك، بالحورانية، وهكذا ذكره معلقاً، وقرأ آخرون: {هِئْتُ لَكَ}، بكسر الهاء والهمزة وضم التاء، بمعنى تهيأت لك، من قول القائل: هئت بالأمر أهيئ هئة، وممن روي عنه هذه القراءة ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو وائل، وعكرمة وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى تهيأت لك.

هذه القراءة مروية عن بعض الصحابة كعليّ، وهي رواية عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما، وبها قرأ هشام وآخرون، مع أنه أنكرها بعض أئمة القراءة، وبعض أئمة اللغة، كأبي عمرو بن العلاء، وقال: هذا لا يعرف في كلام العرب، وقال: لو ذهبتَ من هاهنا إلى اليمن لا تجد من يقول: {هِئْتُ لَكَ}، وأنكرها أيضاً الكسائي، وأقرها آخرون من أهل اللغة، وقالوا: هي لغة عربية ومعروفة، هئت لك.

وقرأ عبد الله بن إسحاق: {هَيتِ} بفتح الهاء وكسر التاء وهي غريبة، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة {هَيتُ} بفتح الهاء وضم التاء.

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: {هيتَ} لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: هيتَ لك، وهيتَ لكم، وهيتَ لكما، وهيتَ لكن، وهيتَ لهن.

{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [(٢٤) سورة يوسف].

وقيل: المراد بهمه بها: خطرات حديث النفس، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي هاهنا حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله تعالى: إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها))[٢]، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة هذا منها، وقيل: همّ بضربها.

بالناسبة لهَمّ لامرأة العزيز كان من قبيل العزم؛ لأنها راودته وغلقت الأواب وقالت: {هَيْتَ لَكَ} فقد كانت عازمة غاية العزم، وأما بالنسبة ليوسف -عليه الصلاة والسلام- فقد ذكر الحافظ ابن كثير –رحمه الله- أن ذلك من خطرات النفس، وهذا هو الراجح من أقوال أهل العلم، والله تعالى أعلم.

وسُئل الإمام أحمد -رحمه الله- عن هذا الهمّ الذي همَّ به يوسف -عليه السلام- فذكر أنه كان من باب الخطرات، فلا يؤاخذ الإنسان عليه، ولا تنقص به مرتبته، ولا يحصل له بذلك مذمة ولا ملامة؛ لأن هذه

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله) (٦ / ٢٧٢٤)، برقم (٧٠٦٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١ / ١١٧)، برقم (١٢٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخطرات التي تقع في النفوس تهجم على النفس دون أن يتطلبها الإنسان ودون أن يقصدها، فما تلبث أن يدفعها الإنسان، وقد قال الله –تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [(١١٠) سورة يوسف] فالرسل –عليهم الصلاة والسلام- لا يمكن أن يحصل منهم مثل هذا الظن، فيقال في مثل هذا –والله أعلم-: إن هذا من الخطرات التي تقع في النفوس في أوقات الشدائد، ثم ما تلبث أن تزول ولا تضر.

وقال بعض أهل العلم: الهم الذي همَّ به يوسف –عليه السلام- هو الميل الطبيعي من الرجل للمرأة، ولكن أهل الإيمان يزمونه بالتقوى.

وقال بعض أهل العلم: إن يوسف –عليه السلام- همَّ بضربها، ولكن هذا القول بعيد، لا يدل عليه ظاهر السياق.

وقال بعض العلماء: إن يوسف –صلى الله عليه وسلم- لم يهم إطلاقاً، وقالوا: بتقديم جواب {لَوْلا}، وجواب {لَوْلا} في قوله –تبارك وتعالى-: {لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ} هو ما قبله من قوله: {وَهَمَّ بِهَا} وهذا قول الكوفيين، ومنعه نحاة البصرة.

وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال: قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى آية من آيات الله تزجره عما كان همَّ به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملَك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى.

قال بعض علماء التفسير: إنه رأى صورة يعقوب -عليه الصلاة والسلام- يعض أنامله، ويتوعده، وقال بعضهم: تصور له جبريل -عليه الصلاة والسلام- بصورة أبيه، وقال بعضهم: رأى يوسف –عليه السلام- في السقف كلاماً مكتوباً يزجره عن هذا الفعل، وقال بعضهم: إن امرأة العزيز لما أرادت فعل الفاحشة أخذت غطاءً أبيض ووضعته على صنم مزين بالجواهر، فسألها يوسف –عليه السلام- عن هذا الفعل، فقالت: حياءً من ربي أن يراني على هذه الفعلة، فقال: فأنا أحق أن أستحي من ربي، وهذا القول لا دليل عليه.

وقوله: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء} [(٢٤) سورة يوسف] أي: كما أريناه برهاناً صرَفه عما كان فيه كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره، {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} أي: من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

قرأ ابن عامر وأبو عمرو وابن كثير بكسر اللام، {المُخْلِصِينَ}، وقرأ آخرون بالفتح {الْمُخْلَصِينَ} والقراءتان بينهما ملازمة، فهو من عباد الله {الْمُخْلَصِينَ} ، فهو من أهل الإخلاص، ومن أهل الاجتباء والاصطفاء، وهذا يدل على أن الاخلاص من أسباب نجاة العبد من الشدائد والكروب والفتن.

قال الشنقيطي -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كذلك} الآية، ظاهر هذه الآية الكريمة قد يُفهم منه أن يوسف -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- همَّ بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همّت هي به منه؛ ولكن القرآن العظيم بين براءته -عليه الصلاة والسلام- من الوقوع فيما لا ينبغي، حيث بيّنت شهادة كل من له تعلق بالمسألة براءته، وشهادة الله له بذلك، واعتراف إبليس به.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم: يوسف، والمرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود.

أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله: {هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي} [(٢٦) سورة يوسف]، وقوله: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} [(٣٣) سورة يوسف].

وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة: {وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ} [(٣٢) سورة يوسف]، وقولها: {الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} [(٥١) سورة يوسف].

وأما اعتراف زوج المرأة، ففي قوله: {فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} [(٢٨-٢٩) سورة يوسف].

وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ} [(٢٦) سورة يوسف] الآية.

وأما شهادة الله -جل وعلا- ببراءته، ففي قوله: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [(٢٤) سورة يوسف].

قال الفخر الرازي في "تفسيره": قد شهد الله تعالى في هذه الآية الكريمة على طهارته أربع مرات:

أولها: {لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ} واللام للتأكيد والمبالغة.

والثاني: قوله: {وَالْفَحْشَاءَ}، أي: وكذلك لنصرف عنه الفحشاء.

والثالث: قوله: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا}، مع أنه تعالى قال: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [(٦٣) سورة الفرقان].

والرابع: قوله: {الْمُخْلَصِينَ}، وفيه قراءتان: قراءة باسم الفاعل. وأخرى باسم المفعول.

فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص.

ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه، واصطفاه لحضرته، وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه إليه. اهـ من تفسير الرازي.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: {مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [(٢٣) سورة يوسف].

وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته، ففي قوله تعالى: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [(٨٢-٨٣) سورة ص]، فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلَصين، ولا شك أن يوسف من المخلَصين، كما صرح تعالى به في قوله: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}، فظهرت دلالة القرآن من جهات متعددة على براءته مما لا ينبغي.

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية ما نصه: وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف -عليه السلام- هذه الفضيحة، إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته.

ولعلهم يقولون: كنا في أول الأمر تلامذة إبليس، إلى أن تخرجنا عليه فزدنا في السفاهة عليه، كما قال الخوارزمي:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكنت امرأً من جند إبليس فارتقى*** بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنت أُحسن بعده*** طرائق فسقٍ ليس يحسنها بعدي

فثبت بهذه الدلائل: أن يوسف -عليه السلام- بريء مما يقول هؤلاء الجهال. ا هـ كلام الرازي.

ولا يخفى ما فيه من قلة الأدب مع من قال تلك المقالة من الصحابة وعلماء السلف الصالح! وعذر الرازي في ذلك هو اعتقاده أن ذلك لم يثبت عن أحد من السلف الصالح.

وسترى في آخر هذا المبحث أقوال العلماء في هذه المسألة إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: قد بينتم دلالة القرآن على براءته -عليه السلام- مما لا ينبغي في الآيات المتقدمة، ولكن ماذا تقولون في قوله تعالى: {وَهَمَّ بِهَا}؟ فالجواب من وجهين:

الأول: أن المراد بهمِّ يوسف بها خاطرٌ قلبي صرفه عنه وازعُ التقوى، وقال بعضهم: هو الميل الطبيعي والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى، وهذا لا معصية فيه؛ لأنه أمر جلي لا يتعلق به التكليف، كما في الحديث عنه -صلى الله عليه وسلم-: أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: ((اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك))[٣]، يعني ميل القلب الطبيعي.

ومثال هذا ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: ((ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة))[٤]؛ لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفاً من الله، وامتثالاً لأمره، كما قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [(٤٠-٤١) سورة النازعات].

وهَمُّ بني حارثة وبني سلمة بالفرار يوم أحد، كهمِّ يوسف هذا، بدليل قوله: {إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [(١٢٢) سورة آل عمران]؛ لأن قوله: {وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا} يدل على أن ذلك الهم ليس معصية، لأن إتباع المعصية بولاية الله لذلك العاصي إغراء على المعصية.

والعرب تطلق الهم وتريد به المحبة والشهوة، فيقول الإنسان فيما لا يحبه ولا يشتهيه: هذا ما يهمني، ويقول فيما يحبه ويشتهيه: هذا أهم الأشياء إليّ، بخلاف هم امرأة العزيز، فإنه هم عزم وتصميم، بدليل أنها شقت قميصه من دبر وهو هارب عنها، ولم يمنعها من الوقوع فيما لا ينبغي إلا عجزها عنه.

ومثل هذا التصميم على المعصية: معصية يؤاخذ بها صاحبها، بدليل الحديث الثابت في الصحيح عنه -صلى الله عليه وسلم- من حديث أبي بكرة -رضي الله تعالى عنه-: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار))، قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟ قال: ((إنه كان حريصاً على قتل صاحبه))[٥]، فصرح -صلى الله عليه وسلم- بأن تصميم عزمه على قتل صاحبه معصية أدخله الله بسببها النار.

---

[٣] - رواه أبو داود، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء (١ / ٦٤٨)، برقم (٢١٣٤).

[٤] - رواه البخاري (٥ / ٢٣٨٠)، برقم (٦١٢٦).

[٥] - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما (١ / ٢٠)، برقم (٣١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما تأويلهم هم يوسف بأنه قارب الهم ولم يهم بالفعل، كقول العرب: قتلته لو لم أخف الله، أي قاربت أن أقتله، كما قاله الزمخشري، وتأويل الهم بأنه همّ بضربها، أو همّ بدفعها عن نفسه فكل ذلك غير ظاهر، بل بعيد من الظاهر، ولا دليل عليه.

والجواب الثاني -وهو اختيار أبي حيان-: أن يوسف لم يقع منه همٌّ أصلاً، بل هو منفي عنه لوجود البرهان.

قال مقيده عفا الله عنه: هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية؛ لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب: أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه، كقوله: {فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ}، أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه، فالأول: دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب، لأن جواب الشروط وجواب {لَوْلا} لا يتقدم، ولكن يكون المذكور قبله دليلاً عليه كالآية المذكورة.

وكقوله: {قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١١١) سورة البقرة]، أي: إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم.

وعلى هذا القول: فمعنى الآية، {وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} أي: لولا أن رآه –أي البرهان- هم بها. فما قبل {لَوْلا} هو دليل الجواب المحذوف، كما هو الغالب في القرآن واللغة.

ونظير ذلك قوله تعالى: {إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا} [(١٠) سورة القصص]، فما قبل {لَوْلا} دليل الجواب. أي لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به.

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب {لَوْلا} وتقديم الجواب في سائر الشروط، وعلى هذا القول يكون جواب {لَوْلا} في قوله: {لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ}، هو ما قبله من قوله: {وَهَمَّ بِهَا}، وإلى جواز التقديم المذكور ذهب الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو العباس المبرد، وأبو زيد الأنصاري.

وقال الشيخ أبو حيان في البحر المحيط ما نصه: والذي أختاره أن يوسف -عليه السلام- لم يقع منه همٌّ بها ألبتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان؛ كما تقول: لقد فارقتَ لولا أن عصمك الله، ولا نقول: إن جواب {لَوْلا} متقدم عليها، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشروط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو زيد الأنصاري، وأبو العباس المبرد.

قال ابن القيم –رحمه الله-: فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبَّره الله؛ فإن موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة، وذلك لوجوه:

أحدها: ما ركبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة؛ كما يميل العطشان إلى الماء والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يُذم إذا صادف حلالاً، بل يحمد.

الثاني: أنَّ يوسف -عليه السلام- كان شاباً، وشهوة الشباب وحدّته أقوى.

الثالث: أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سُرِّيَّة تكسر شدة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال؛ بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية؛ فإن كثيراً من الناس يزيل رغبتَه في المرأة إباؤها وامتناعها؛ لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها.

وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحباً، كما قال الشاعر:

وزادني كَلَفاً في الحب أن مَنَعتْ*** وحَبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما منعا

فطباع النفس مختلفة، فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها، ويضمحلّ عند إبائها وامتناعها، وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته، وإبائها بحيث لا يعاودها، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما مُنع، ويحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها.

السابع: أنها طلبتْ وأرادتْ وراودت وبذلت الجهد، فكفته مئونة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها؛ بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تَنِمَّ عليه هي ولا أحد من جهتها؛ فإنها هي الطالبة والراغبة، وقد غلّقت الأبواب وغيبت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكاً لها في الدار؛ بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا يُنكر عليه، وكان الأنس سابقاً على الطلب، وهو من أقوى الدواعي؛ كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب: ما حملك على الزنا؟ قالت: قرب الوساد وطول السَّواد؛ تعني: قرب وساد الرجل من وسادتي وطول السواد بيننا.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه، واستعان هو بالله عليهن فقال: {وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ} [(٣٣) سورة يوسف].

الثاني عشر: أنها توعّدته بالسجن والصَّغار، وهذا نوع إكراه؛ إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلا منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: {أَعْرِضْ عَنْ هَذَا} وللمرأة {وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ}، وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهنا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنا {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} [(٣٣) سورة يوسف] وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبنفسه، وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحِكَم ما يزيد على الألف فائدة، لعلنا -إن وفق الله- أن نفردها في مصنف مستقل. انتهى كلام ابن القيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- عند تفسير قوله تعالى: {وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنْ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنْ الْخَاطِئِينَ} [سورة يوسف(٢٥-٢٩)].

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب: يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه، فقدّتْه قداً فظيعاً، يقال: إنه سقط عنه واستمر يوسف -عليه السلام- هارباً ذاهباً، وهي في إثره، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها: {مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا} أي: فاحشة، {إِلاّ أَن يُسْجَنَ} أي: يحبس، {أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: يضرب ضرباً شديداً موجعاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الحافظ -رحمه الله-: "**فأمسكت بقميصه من ورائه فقدّته قداً فظيعاً**"، في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ}، قدّته يعني شقته، ويستعمل القدّ في الشق طولاً، وأما الشق بالعرض فإنه قد يعبر عنه بغير ذلك يقال القّط، يقول الله -تبارك وتعالى- حينما ألفيا سيدها لدى الباب قالت: {مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، "ما" هذه تحتمل أن تكون استفهامية، هي تسأل تقول: ما جزاؤه، ما عقوبته؟، ثم أجابت نفسها فقالت: {إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، قال به طائفة من المفسرين، ويحتمل أن تكون "ما" نافية، فتكون هذه الجملة مركبة من نفي واستثناء، فتفيد الحصر، ما جزاؤه إلا أن يسجن، أي: ليس له جزاء إلا أن يسجن، لا جزاء لمن أراد بأهلك سوءاً إلا أن يفعل به كذا وكذا، فألقت إليه التهمة وحددت العقوبة، على كل واحد من هذه الاحتمالات، الاحتمال الأول أن تكون استفهامية، هي تسأل تقول: ما جزاؤه؟ ثم أجابت قالت: {إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وعلى الثاني لا جزاء له إلا أن يسجن أو عذاب أليم.

{إِلاّ أَن يُسْجَنَ} أي: **يحبس**، {أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: **يضرب ضرباً شديداً موجعاً.**

فعند ذلك انتصر يوسف -عليه السلام- بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، وقال باراً صادقاً {هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي}، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه، {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ}: أي من قدامه، {فَصَدَقَتْ} أي: في قولها إنه راودها عن نفسها؛ لأنه يكون لمّا دعاها وأبت عليه دفعته في صدره، فقدّت قميصه، فيصح ما قالت، {وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصَّادِقِينَ} وذلك يكون -كما وقع- لمّا هرب منها وتطلبته، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها، فقدّت قميصه من ورائه.

القد من قُبل قرينة وإن لم تكن قاطعة بحد ذاتها، والعلماء أخذوا من هذا أنه يجوز العمل بالقرائن إذا تعذرت البينة، وإلا فيمكن أن تكون قد جذبت قميصه من الأمام فانشق من الوراء، والعكس أيضاً، يعني في مجاري العادات هذا غير ممتنع، ولكن الغالب إذا كان الجذب من الخلف يكون القد من الخلف، والعكس بالعكس، ولكن هذا ليس بقاطع مائة بالمائة، فدل على جواز العمل بالقرائن، وهذا مثال على استنباط الأحكام من القصص، يعني الآيات التي أُوردت بقصد تقرير حكم شرعي هي التي يسميها العلماء -رحمهم الله- بالخمسمائة آية -آيات الأحكام-، وألف فيها كثيرون، وأكثرُ من أَلّف في أحكام القرآن في الخمسمائة آية، وأول كتاب وصلنا في هذا كتاب مقاتل بن سليمان المتوفى سنة مائة وخمسين للهجرة، اسمه تفسير الخمسمائة آية، ولا يقصدون أن آيات الأحكام هي خمسمائة آية فقط، وإنما يقصدون الآيات الصريحة التي سيقت لتقرير الحكم مثل: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ} [سورة البقرة(٤٣)]، {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ} [سورة البقرة(٢٢٨)]، وما أشبه هذا، لكن هناك أشياء أخرى من الأحكام تستنبط من القصص، مثل هذه يستنبط منها جواز العمل بالقرائن، ويستنبط من قول الله: {وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ} [سورة يوسف(٧٢)] مسألة الكفالة، والجعالة، ومسألة شرع من قبلنا إذا جاء في شرعنا ما يوافق ذلك فلا إشكال قطعاً في العمل به، أما إذا لم يرد في شرعنا ما يخالفه ولم يرد فيه ما يوافقه، فهذا الذي قال بعض أهل العلم: إنه لا يعمل به، وأكثر أهل العلم على أن ذلك يشرع العمل به، والقرطبي -رحمه الله- في تفسيره -وهو من أجل التفاسير- لم يقتصر على الخمسمائة آية فقط، بل فسر جميع القرآن واستنبط من كل ما يمكن الاستنباط منه، وهكذا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي.

وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير؟ فروى عبد الرزاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا} قال: ذو لحية، وقال الثوري: عن جابر عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان من خاصة الملك، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم: إنه كان رجلاً.

يعني أنه كان رجلاً من خاصة الملك، بعض أهل العلم يقول: هذا رجل كان يستشيره الملك، وبعضهم يقول: كان ابن عمها، وبعضهم يقول: ابن خالها، وبعضهم يقول غير ذلك، أقاويل كثيرة، وعامة هذه الأقوال إن لم يكن كل هذه الأقوال لا دليل عليها، إلا قول من قال: إنه كان صغيراً في المهد؛ لما أخرجه الإمام أحمد وغيره في الذين تكلموا في المهد[1]، والحديث أقل أحواله -إن شاء الله- أنه حسن، وفي الصحيحين ذكر أنهم

---

١ - رواه الإمام أحمد في المسند (٣٠/٥)، برقم (٢٨٢١)، وفيه قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: " تكلم أربعة صغار: عيسى ابن مريم -عليه السلام-، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابنة فرعون"، وقال محققوه: إسناده حسن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثلاثة[٢] والأحاديث التي جاءت في الذين تكلموا في المهد يمكن أن يجمع منها أكثر من أربعة، لكنّ عدداً من هذه الأحاديث لا يصح، والحديث الذي رواه أحمد ذكر أربعة وهم ابن ماشطة بنت فرعون، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وصح أيضاً في بعض الأحاديث في قصة الأخدود المرأة التي كانت تحمل صبياً فترددت حينما قدمت على الأخدود تلقي بنفسها أو لا، فقال: يا أمه إنك على الحق[٣]، وصح خبر المرأة التي كانت تحمل صبياً فمر بها فارس فقالت: ((اللهم اجعل ابني مثل هذا، وكان قد التقم الثدي يعني يرضع، فترك الثدي وقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم مرت بجارية يضربها أهلها، وقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك الثدي وقال: اللهم اجعلني مثلها))[٤]، وجاء في بعض الروايات الضعيفة غير هذا، فإذا صحت هذه الرواية أن من هؤلاء ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف فإنه يوقف عنده، وباقي الأقوال لا دليل عليها، قد يكون كذا أو كذا أو غير ذلك، إلا أن من هذه الأقوال قولاً يمكن الجزم ببطلانه، وهذا من غرائب التفسير، وإن قال به أحد من التابعين، يقول: إنه ليس بإنسي ولا جني، أو ولا ملَك، كيف يكون هذا والله -عز وجل- يقول: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا}، وأهل هذه المرأة من الإنس قطعاً؟.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا} قال: كان صبياً في المهد، وكذا روي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- وهلال بن يَساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم: أنه كان صبياً في الدار، واختاره ابن جرير.

الصبي الذي كان في الدار قد لا يكون في المهد، قد يكون طفلاً، لكنها لم تكترث به، ولم تلتفت إليه، ربما ظنت أنه لا يميز أو لا يؤبه له، فتكلم بمثل هذا، وإذا صحت هذه الرواية فإنه يقال: إنه كان في المهد، والعلم عند الله -عز وجل-.

وقوله: {فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ} أي: لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به، {قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ} أي: إن هذا البهت واللَّطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن، {إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}، ثم قال آمراً ليوسف -عليه السلام- بكتمان ما وقع: {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا} أي: اضرب عن هذا صفحاً، أي: فلا تذكره لأحد.

---

٢ - رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم (٣٢٥٣)، كتاب الأنبياء، باب {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [سورة مريم(١٦)]، وذكر ثلاثة، عيسى ابن مريم -عليه السلام-، وصاحب جريج، وولد المرأة التي مر بها فارس فقالت: اللهم اجعل ولدي مثل هذا، فقال: اللهم لا تجعلني مثله...، ومسلم برقم (٢٥٥٠) كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها .

٣ - رواه مسلم من حديث عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب -رضي الله عنه- برقم (٣٠٠٥)، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام.

٤ - رواه البخاري برقم (٣٢٥٣)، كتاب الأنبياء، باب {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا}، ومسلم برقم (٢٥٥٠)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ} يقول لامرأته، وقد كان لين العريكة سهلاً، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: استغفري لذنبك، أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذْفِه بما هو بريء منه، {إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ}.

الصحيح أنه كان سهلاً، قليل الغيرة؛ لأنه أبقاه عندها، وهي لا زالت مصرة، وتقول بعد ذلك: {وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ} [سورة يوسف(٣٢)]، فهي تهدده وتأتي به إلى النساء، ويفتن أولئك النسوة به، فهو باق معها بعد هذه المحاولات جميعاً، والعزم المصمم، وتغليق الأبواب، وغاية ما فعل قال ليوسف: لا تخبر أحد بهذا، وأنت استغفري لربك، وانتهت المشكلة، فهذه قلة غيرة، ويبدو أنها تعرف أن زوجها بهذه المثابة؛ ولذلك اجترأت هذا الجرأة العظيمة.

{وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة يوسف(٣٠-٣٤)].

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة وهي مصر، حتى تحدث به الناس، {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ} مثل نساء الكبراء والأمراء، ينكرن على امرأة العزيز، وهو الوزير، ويعبْنَ ذلك عليها.

العزيز في لغة العرب هو الملك كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، ويقول الحافظ: "**مثل نساء الكبراء والأمراء**"، وبعض السلف يقول: إن هؤلاء النسوة، يعني امرأة الحاجب وامرأة الذي يخبز له، وامرأة القائم على بعض أعماله، أو على الدواب، ناس يشتغلون عند العزيز، وهذا لا دليل عليه، فقد يكون نساء الكبراء، أو نساء هؤلاء الذين هم تحت يده من أعوانه، وقد يكون غير ذلك، -والله أعلم-.

{امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ} أي: تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها، {قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً} أي: قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه.

قوله: {قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً} أي: تغلغل في قلبها، وبعضهم يقول: وسط القلب، والمشهور هو الذي اختاره ابن جرير، وقال به كثير من السلف: إن هذا غلاف القلب، يعبر بمثل هذا عن تغلغل الحب، وأنه قد خالط القلب ومازَجه ودخل فيه، وقيل: مثل هذه العبارة تدل على معنىً كبير في الحب، إذا قتلها الحب يقال: شغفها، وإذا قتله يقال: شغفه.

قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الشعف: الحب القاتل، والشغف دون ذلك.

كلمة الشعف تطلق على أعلى الشيء، أعالي الأشياء، فقالوا: هذا أعلى الحب، الحب القاتل، فهو أعلى من الشغف، وقرأ الحسن وابن محيصن "قد شعَفها حباً".

والشغاف حجاب القلب، {إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} أي: في صنيعها هذا من حبها فتاها ومراودتها إياه عن نفسه، {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ} قال بعضهم: بقولهن: ذهب الحب بها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}، كما قال إخوة يوسف -عليه الصلاة والسلام- عن أبيهم -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} يعني: ذهابٍ عن الحق، فهؤلاء ينتقدْنها بأنها قد فتنت بمملوك عندها، وأخذ بلبها، وشغفها حباً، قد تكون هؤلاء النسوة قلن ذلك ليتوصلن إلى النظر إليه ورؤيته، ويكون هذا هو المكر الذي صدر منهن والكيد، وقد لا يخلو هذا من بعد، ويحتمل أن يكون المقصود بهذا المكر {سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ} أنها غيبة، ولما كانت الغيبة في الخفاء فأشبهت المكر الذي يكون في الخفاء، {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ}، فيحتمل هذا ويحتمل هذا، والعلم عند الله -عز وجل-.

وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حسن يوسف فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك {أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ} أي: دعتهن إلى منزلها لتضيِّفهن، {وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً}. قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم: هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد، وطعام، فيه ما يقطع بالسكاكين من أُتْرُجٍّ ونحوه.

هذا جواب لتساؤل: ما هو المكر الذي مكرنه هؤلاء النسوة؟

وقوله: {وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا} المتكأ: المجلس الذي فيه ما يُتكأ عليه، ويرتفق به، وفيه طعام، باعتبار قوله: {وَآتَتْ}، لم يقل الله -تبارك وتعالى-: وفيه طعام، وإنما عرف هذا، من قوله: {وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا}، ولهذا فسر بعضهم المتكأ بأنه يصدق على كل ما يُتكأ عليه من الأثاث، والطعام، ولا يقصد أنه يُتكأ على الطعام، وإنما ما يشتغل به الناس، فالمجالس عادة يوضع فيها ما يتلهى به الجالسون من مطعوم ومشروب ونحو ذلك، فيكون يشمل هذا وهذا، وقيل غير هذا.

ولهذا قال تعالى: {وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا}.

جاء في قراءة لسعيد بن جبير، قرأ بها بعض السلف، بإسكان التاء ومن غير همز "مُتْكاً"، قالوا: والمُتْك هو الأُتْرُنْج، بعضهم قال: هذا في لغة القبط، وبعضهم يقول: في لغة أزد شنوءة، أنها أعدت لهن متْكاً يعني أُتْرُنْجًا، ومعنى الإعداد: تهيئة الشيء بعناية ونحو ذلك، يعني جهزتْه من أجل أن يقع ما وقع، لكن هذه القراءة ليست متواترة، وهذا أوردته من أجل أن تدرِك -سواء مما ذكره الحافظ في الرواية السابقة أو غير ذلك مما يوجد في كتب التفسير من الروايات- أنهم يذكرون الأُتْرُنْج ، وإنما قرأ بهذه القراءة بعض السلف كسعيد بن جبير وغيره مثل مجاهد "متْكاً": أي أُتْرُنْجًا ، والقراءة الأحادية هذه يستأنس بها، وتفسر بها القراءة المتواترة، إذا صح سندها، -والله أعلم-.

وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته، {وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ} وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر، {فَلَمَّا} خرج و{رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ} أي: أعظمنه، أي أعظمن شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دَهَشاً برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأُتْرُجَّ بالسكاكين، والمراد أنهن حززن أيديهن بها، قاله غير واحد.

يعني من شدة الذهول، من شدة جمال يوسف -صلى الله عليه وسلم- حصل لهن هذا، فكانت الواحدة لا تشعر ماذا تصنع، مع أن الحز يؤلم، فصارت الواحدة تقطع يدها، والمقصود بتقطيع اليد: الحز وأنها تخدش أو تجرح يدها، لا أنها تبين اليد وتنقطع تماماً، وإن قال بعض المفسرين: إنهن قطعن أيديهن تماماً، وابن جرير

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

-رحمه الله- يقول: لا يوجد عندنا ما يمنع من هذا ولا هذا، يحتمل أن تكون الأيدي انقطعت تماماً وهن لم يشعرن من شدة الذهول، وبعضهم فسر الأيدي بالأنامل، يعني جرّحن أناملهن بالسكين بدلاً من أن يقطعن الأُتْرُجَّ، {وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ} بدل من تقطيع هذا الأُتْرُجّ أو غيره، يعني من الفاكهة، أو ما وضع لهن مما يحتاج إلى قطع، فتصور أنهن جالسات يشتغلن بقطع أيدهن وهن لا يشعرن من شدة الذهول لما رأينه، {أَكْبَرْنَهُ} أي: أعظمنه، وهذا هو الأقرب وهو المتبادر، وقيل: {أَكْبَرْنَهُ} أي: أمذين، والهاء للسكت، واحتجوا بقول الشاعر:

إذا ما رأينَ الفحلَ من فوق قلَّةٍ *** صهلنَ وأكبرنَ المنيَّ المقطَّرا

وبعضهم قال: أمْنين، يعني أنهن استفرغن شهوتهن وأنزلن لمّا رأينه من شدة الرغبة والشهوة الجامحة، واحتجوا بنفس البيت لكنه برواية مقاربة:

ولمّا رأته الخيلُ من رأس شاهقٍ *** صهلنَ وأمنينَ المنيَّ المدفَّقا

وبعضهم فسر هذه اللفظة {أَكْبَرْنَهُ} بالحيض، أي: حضْنَ، وهذا قال به أئمة من أهل اللغة وأنكره آخرون، قالوا: لأن الهاء موجودة، فأجابوا بأن الهاء للسكت، يقال: أكبرت المرأة: أي حاضت، ومنه قول الشاعر:

نأتي النساء على أطهارهن ولا *** نأتي النساء إذا أكبرن إكباراً

فمن شدة الدهشة والذهول والصدمة التي أصابتهن من شدة جمال يوسف -عليه السلام- عندما رأينه، نزل الدم في غير حينه.

وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعد ما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أُتْرُجًّا وآتت كل واحدة منهن سكيناً: هل لكن في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، فرجع وهن يحززن في أيديهن، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا، فكيف ألام أنا؟ {وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ} ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا؛ لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريباً منه.

قوله: "**لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريباً منه**" هذا جواب على سؤال مقدر، لماذا قلن: {مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ}، هل رأين الملائكة أصلاً؟ والجواب: لا، لكنهن ما رأين بشراً بهذه الصفة والجمال الباهر، فمباشرة حكمن بأن هذا ملَك؛ لمَا استقر في أذهان الناس أن الملك فيه ألوان الكمالات، وكما يقولون في صفة الشيء البشع: كأنه شيطان، أو المتناهي في القبح: كأنه شيطان، والله -عز وجل- قال عن شجرة الزقوم: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ}[سورة الصافات(٦٥)]، فشبهه برءوس الشياطين؛ لأنه قد استقر عند الناس أن رءوس الشياطين وصورة الشياطين في غاية القبح، وهذه الآية من الآيات التي احتج بها من قال: إن الملائكة أفضل من البشر، وأكمل من البشر، وهذا لا دليل فيه، وهؤلاء النسوة قالوا: {إِنْ هَذَا إِلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ}، ومسألة المفاضلة بين البشر أو بين صالحي البشر والملائكة لا طائل تحتها -فالله تعالى أعلم-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإنه -عليه السلام- كان قد أعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مر بيوسف -عليه السلام- في السماء الثالثة، قال: ((فإذا هو قد أعطي شطر الحسن))[٥].

قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله {مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ} تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله، {وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ} أي: فامتنع، قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال.

يعني الإنسان إذا أعطي جمالاً باهراً ولم يكن معه عفاف فإن ذلك يكون نقصاً فيه، وقد تكون امرأة في غاية الجمال لكن إذا علم أنها بائعة هوى فإن ذلك يكون سفولاً وانحطاطاً في مرتبتها، فلا تمتد إليها أنظار من أكرم نفسه، ورفعها وعرف قدرها، بل يحتقرها، فهي تقول: ليست هذه الصورة الظاهرة التي ترون فقط، لا بل فيه من صفات الكمالات الباطنة التي لا تعرفن، وهي العفاف، {فَاسْتَعْصَمَ}، عفيف، وكثير من الناس لا يحسن له هذا لا من الرجال ولا من النساء إلا من لطف الله -عز وجل- به، وابن القيم له كلام شديد عندما تكلم عن الجمال، وأولئك الذين يبحثون عن الجمال في المرأة، كلام شديد في المرأة التي تعطَى جمالاً كبيراً وماذا يؤثر هذا الجمال فيها من المفاسد، وكذلك كثير من الرجال إذا أعطي جمالاً فإنه قد يغتر، ويستغل هذا الجمال في اصطياد النساء، ومواقعة الفواحش، فإذا وُجد الجمال مع العفاف فهذا هو الكمال.

ثم قالت تتوعده: {وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلِيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ} فعند ذلك استعاذ يوسف -عليه السلام- من شرهن وكيدهن، و{قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} أي: من الفاحشة، {وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ} أي: إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي.

قال يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ}، بصيغة جمع، وأصل القضية والتي طالبته بهذا هي امرأة العزيز، ما قال: وإلا تصرف عني كيدها، وهي التي قالت: {وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ}، بعض أهل العلم يقول: هذا قصد به امرأة العزيز وأن صيغة الجمع للتعظيم، وهذا فيه بعد، التعظيم ما يقال بهذه الصيغة، بضمير الغائب، وإنما ذلك يقال للمخاطب، أنتم قلتم كذا، ذكرتم كذا، أو المتكلم، ذكرنا كذا، لكن الغائب لا يقال له هذا عادة، ولهذا {وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ}، ما يقال: هذا للتعظيم، وقيل: إن هؤلاء النسوة قلن ليوسف -عليه الصلاة والسلام-: طاوعها، وخوّفنه من مخالفتها، فكنّ أعواناً لها على هذا المطلب الذي طلبته، وهذا كيد هؤلاء النسوة، وقيل: إن كل واحدة منهن حاولت أن تخلو به؛ لتدعوه إلى نفسها وتقول له: أنا أفضل من امرأة العزيز، لما رأينه، -فالله تعالى أعلم-، وكنّ يلمنها في هذا فلما رأينه عذرنها على ما وقع؛ ولهذا اجترأت بحضرتهن وقالت مكاشفة ومصارحة: {وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ}، تقول لهن: أنا مصرة أيضاً على هذا، لا صبر لي عنه، فما

---

٥ - رواه مسلم برقم (١٦٢)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اجترأت وقالت هذا الكلام إلا بعد ما عرفت أنها معذورة أمام هؤلاء النسوة، كأنهن قلن: والله ما تلامين، فيكون هذا هو الكيد، {وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ}، والله المستعان.

{أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ} الآية، وذلك أن يوسف -عليه السلام- عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه.

ومن الدواعي كونه مملوكاً، إذ المملوك عادة يترخص بأمور كثيرة؛ ولهذا فهذا أحد التعليلات في كون حد الزنا نصف الحد بالنسبة للملوك، وليس له تلك المرتبة في الشرف، فيضرب نصف الحد، وكذلك أيضاً الله -عز وجل- يقول: {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ} [سورة النـــــور(٣٢)] يعني: من الأحرار، والأيْم: هو من لم يتزوج ذكراً كان أو أنثى، {وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ} أي: الصالحين منهم، ولم يقل: كل العباد والإماء، وإنما قال: {وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى}، وفي المماليك قال: {وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ}، فهؤلاء هم الذين يطلبون العفاف، وإلا فكثير من المماليك يترخصون في أمور كثيرة، ولهذا فإن الأمَة لا تطالب بالحجاب كما تطالب الحرة، وعمر كان يعاقب الأمة إذا رآها تحتجب وتلبس لباس الحرة إذا خرجت، لأن الأمة الشرف بالنسبة إليها أدنى من شرف الحرة، فهذا مملوك عندها في بلد ليست بلده كما سبق، وفي قصرها، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة السابقة.

وقوله: {أَصْبُ إِلَيْهِنَّ}، أي: أميل إليهن.

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه))[٦].

---

٦ - رواه البخاري برقم (٦٢٩)، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، ومسلم برقم (١٠٣١)، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ} [سورة يوسف(٣٥)].

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي إلى مدة؛ وذلك بعد ما عرفوا براءته، وظهرت الآيات وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، وكأنهم ــ والله أعلم ــ إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك؛ ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبيّن براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض -صلوات الله عليه وسلامه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ}: ما ذكره الحافظ -رحمه الله- من أن هذه الآيات هي الدالة على براءته هو الأرجح من أقوال المفسرين، وينبغي أن لا يدخل مع هذه الآيات تقطيع النسوة لأيديهن، فإن هذا لا تعلق له بهذا الموضع -والله تعالى أعلم-، فتقطيع النسوة لأيديهن يمكن أن يتعلق بقول آخر في تفسير الآيات، كقول من قال: إن المراد رأوا الآيات الدالة على كماله وأوصافه العظيمة التي كانت مبهرة، فكان ذلك سبباً لمراودة امرأة العزيز له، ولما رآه النساء قطعن أيديهن، فهؤلاء يقولون: إنهم سجنوه من أجل الحيلولة بينه وبين امرأة العزيز التي فتنت وفعلت كل شيء بمستطاعها من أجل أن تصل إليه، وتوعدته إن لم يفعل، وعلى هذا القول يمكن أن يدخل ما حصل من هؤلاء النسوة في المراد بهذه الآيات، ولكنه قول مرجوح، وأما على القول الراجح من أن الآيات يعني الدالة على صدقه مثل شق القميص، وقول امرأة العزيز: {فَاسْتَعْصَمَ} [سورة يوسف(٣٢)]، يدل على أنه كان بريئاً {لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ} إلى زمن من أجل أن تهدأ القالة، ويُنسى خبره، ويترك الناس الانشغال بما جرى بينه وبين امرأة العزيز، -والله تعالى أعلم-.

{وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيَ أَرَانِيَ أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخر إِنِّي أَرَانِيَ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[سورة يوسف(٣٦)].

قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبازه، ثم إنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره.

قوله: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ} الفتى يقال للشاب في مكتمل العمر، ويقال للخادم أيضاً، ويقال للمملوك، وبعضهم يقول: هؤلاء كانوا من المماليك للعزيز، وهذا لا دليل عليه، وكثير من الروايات المنقولة عن السلف مرجعها إلى بني إسرائيل، كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: كان أحدهما هو ساقي الملك، والثاني هو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخباز، ويذكرون من خبرهم أشياء -الله تعالى أعلم بها-، يقال: إنهم أغراهم أهل مصر بوضع السم في طعامه، فلما أراد أن يأكل قال له الساقي: لا تأكل من هذا الطعام فإن فيه السم، إما لأنه ندم أو خاف، فقال الخباز: فلا تشرب من هذا فإن فيه السم، يعني كأنه أراد أن يتهمه أيضاً في تخصصه وفي صنعته وهي السقاية، سقاية الملك، فأمر بهما إلى السجن، وفي بعض هذه الروايات، أنه أمر الساقي أن يشرب من هذا الشراب الذي أعده فشرب منه، وما أصابه شيء، وأمر الخباز أن يأكل من هذا الخبز أو الطعام فأبى، فجيء ببهيمة فأعطي لها فماتت، فأمر بهما إلى السجن، ربما لو صح هذا باعتبار أن هذا الساقي كان يعلم، فبينهما مواطأة، لكنه لم يطل مكثه، بل جاء في بعض الروايات أنه لما ذكر الرؤيا ليوسف -عليه الصلاة والسلام- ذكر له أنه سيخرج بعد ثلاثة أيام، وهذه الروايات لا يعول عليها لأنها من الإسرائيليات، أما يوسف -عليه الصلاة والسلام- فإنه بقي بعده مدة طويلة كما يدل عليه ظاهر الآيات، وظاهر القرآن أن هؤلاء دخلوا في وقت متزامن مع دخوله {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ}، وهؤلاء سألوه عن تعبير الرؤيا، قال أحدهما كذا، وقال الآخر كذا، يذكرون أنهم سألوه حينما دخل السجن عن عمله، فأخبرهم أنه يعبر الرؤى، وهذا أمر يحصل أن هؤلاء الذين في السجن كلما دخل عليهم واحد جلسوا معه وسألوه: من أين جاء؟ وماذا عمل؟ وأين يعمل؟ ليتعرفوا على أحواله؛ لأنه ليس لهم عمل ولا شغل، فالشاهد أنهم سألوه فأخبرهم أنه يعبر الرؤى، وذكر بعض المفسرين أنه لم يكن ذلك الذي أخبروه به رؤيا حقيقة، وإنما هو شيء مختلق، أرادوا أن يختبروه به، وهذا ظاهر كلام ابن جرير، وهذا لا دليل عليه، وإن قال به بعض السلف، ويقولون: هذا يشير إليه قوله: {قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} [سورة يوسف(٤١)]، يعني أنهم لما سمعوا هذا التفسير أو التعبير، وفيه أن أحدهما يصلب، كأنه أراد أن يتراجع، قال: لا، ما رأيت شيئاً، فقال: الموضوع انتهى، باعتبار أن الرؤيا على رِجل طائر، وأنها تقع كما عُبرت، على هذا التفسير: أنه حتى لو أرى الإنسانُ عينَه مالا ترى، وفُسر له هذا، أنه يقع كما فسر، هذا على قول بعض أهل العلم، وهو ظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله-، ولا دليل على أن هؤلاء اختلقوا ذلك وافتروه من أجل اختبار يوسف -عليه الصلاة والسلام-، على كل حال فهذا يقول: {إِنِّيَ أَرَانِيَ أَعْصِرُ خَمْرًا}أي: أعصر عنباً؛ لأن الخمر لا تعصر كما هو معلوم، وإنما تتخذ من عصير العنب، والعرب تعبر بهذا كثيراً، قد ذكر الأصمعي عن بعض الأئمة أنه لقي رجلاً من الأعراب في البادية وقال له: ما معك؟ فقال: خمر، وهو يحمل عنب، وبعضهم يقول: هذا في لغة أهل عمان، يسمون العنب بالخمر، ولا إشكال أيّاً كان فالشيء يمكن أن يعبر عنه باسم يئول إليه، فسماه بالاسم الذي يئول إليه، {إِنِّيَ أَرَانِيَ أَعْصِرُ خَمْرًا}، قالوا: هذا هو الساقي، الذي يسقي الملك، {أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخر إِنِّي أَرَانِيَ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ}، قالوا: وهذا هو الذي كان خباز الملك، {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}، بعضهم يقول: {نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}: يعني من المحسنين في تعبير الرؤى، وبعضهم يقول: {مِنَ الْمُحْسِنِينَ} يعني لأهل السجن، كان يحسن إليهم ويواسيهم ويرفق بهم، ويتفقد حاجتهم، ويخفف عمن كان محزوناً أو يواسي المريض أو نحو هذا، {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}، ويحتمل هذا وهذا، فهم رأوا فيه من أمارات الإحسان وأعمال المحسنين ما حملهم على هذا، ولا يقال: لماذا لم يقولوا: إنا لنراك عالماً بتعبير الرؤى مثلاً؟، وإنما قالوا: {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}، فإنه بتعبير رؤاهم يكون قد أحسن إليهم، فهذا شيء يقدمه لهم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهم بحاجة إليه، ولربما كانت حاجتهم إليه أعظم من حاجتهم أحياناً لطعام يطعموه أو شراب يشربوه، فإن الكثيرين يتطلبون تعبير الرؤى، ولربما أقلقتهم وشغلتهم عما هم بصدده، والله المستعان.

{قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ} [سورة يوسف(٣٧-٣٨)].

يخبرهما يوسف -عليه السلام- أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم فإنه عارف بتفسيره، يخبرهما بتأويله قبل وقوعه؛ ولهذا قال: {قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ}، قال مجاهد: يقول: {لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ} في يومكما، {إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا} وكذا قال السدي.

قوله: {قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا}، يحتمل أن يكون لا تعلق له بتعبير الرؤى، وإنما هو كالمقدمة لما سيذكره بعده من دعوتهم إلى التوحيد، فأراد أن يبيّن لهما علمه وما أعطاه الله -عز وجل- إياه؛ من أجل أن يكون ذلك سبباً داعياً للقبول، وأن الله -تبارك وتعالى- علمه وأطلعه على ما شاء أن يطلعه عليه من الأمور الغيبية، كما قال عيسى -صلى الله عليه وسلم-: {وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران(٤٩)]، فبعض أهل العلم يقول: هذا كهذا، ذكره مقدمة للدعوة إلى التوحيد، ولا تعلق له بتعبير الرؤى، وقيل: هذا له اتصال بما ذكر من تعبير الرؤى، فهذا رأى نفسه يعصر خمراً، والآخر يحمل فوق رأسه خبزاً، فهذا مطعوم وهذا مشروب، فقال لهما: {لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ} يعني في المنام، ما تريانه في المنام، {إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ}، فهذا الذي يعصر خمراً قلنا: يعصر عنباً، كما تدل عليه قراءة ابن مسعود: "إني أراني أعصر عنباً"، فهذا مما يشرب، والآخر مما يؤكل، والطعام يطلق على هذا وهذا، والدليل على هذا قول الله -تبارك وتعالى-: {وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي} [سورة البقرة(٢٤٩)]، والمقصود به شيء مشروب من النهر، وبعض أهل العلم يقول: هذا فيما يريانه في المنام، وهذا الذي عليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، وعلى هذا يكون ذلك مرتبطاً بتعبير الرؤيا، وهذا جواب على سؤال يرد، هما سألاه عن رؤيا، فقال لهما: {لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا}، فإن كان ذلك يتعلق بنفس الرؤيا فالأمر واضح، {لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ} في الرؤيا، {إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ}، وإن كان لا تعلق له فالجواب أنه مقدمة للدعوة إلى التوحيد.

ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياي، لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد، {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} الآية، يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قوله -عليه الصلاة والسلام-: {تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} لا يفهم منه أنه كان على هذا ثم تركه، إطلاقاً، فهو ابن نبي ابن نبي ابن نبي، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [سورة إبراهيم(١٣)]، الأقرب أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لم يكونوا على دين قومهم، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- حينما قال في مناظرته: {هَذَا رَبِّي} [سورة الأنعام(٧٦)] للكوكب، قال على سبيل المناظرة، كان مناظراً لا ناظراً، وأنه لم يشك إطلاقاً في أن عبادة الكوكب باطل بكل حال، ولهذا قال الله -عز وجل- عنه:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة النحل(١٢٠)]، ونفْيُ الكون يشمل الزمن الماضي والحاضر والمستقبل، وكذلك قال يوسف -عليه الصلاة والسلام-: {مَا كَانَ لَنَآ أَن نّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ}، فترك ملة هؤلاء الناس، عرف أنها باطلة وأعرض عنها، ولم يكن عليها في يوم من الأيام، كيف يكون عليها وهو ابن يعقوب -صلى الله عليه وسلم-؟، ولهذا قال: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ}، ابتدأ بالجد الأبعد؛ لأنه هو الأصل، والتوحيد، والحنيفية تنسب إليه -عليه الصلاة والسلام-، يقال: ملة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم.

وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد، {مَا كَانَ لَنَآ أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ}، هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، {مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا} أي: أوحاه إلينا وأمرنا به. {وَعَلَى النَّاسِ} إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ} أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل {بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}.

هذه الآيات وغيرها من الآيات المتعلقة بهذه السورة مليئة بالفوائد، حتى إن ابن القيم -رحمه الله- ذكر أنه يستخرج من هذه السورة أكثر من ألف فائدة، فمن هذه الفوائد العجيبة أن الله -تبارك وتعالى- أعطاه في تعبير الرؤى، فجعل ذلك مفتاحاً لدعوته إلى التوحيد، وأن هذا أول دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- في كل أحوالهم، فهو في السجن يدعو إلى التوحيد، ويبيّن ذلك أحسن البيان، بهذه الطرق التي سمعتم، {أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [سورة يوسف(٣٩)]، وأيضاً يوسف -عليه الصلاة والسلام- قال: {ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا} أن من هداه الله -عز وجل- للتوحيد واتباع الحق والسنة فقد أنعم عليه نعمة عظيمة جداً، حُرمها كثير من الناس، فينبغي أن يحمد الله -عز وجل- عليها، ويتمسك بها، ويثبت على ذلك، فهي منحة ومنة عظيمة لا يقدَّر قدرُها، كثير من الناس يتمرغون في الشرك وعبادة غير الله -عز وجل- وألوان الأهواء والبدع، فإذا منَّ الله -عز وجل- على عبد بالتوحيد والاتباع فهذه نعمة تستوجب مزيداً من الشكر والإقبال على الله جل جلاله.

{يَا صَاحِبَيِ السّجْنِ أَأَرْبَابٌ مّتَفَرّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاّ أَسْمَآءً سَمّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ مّآ أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ للّهِ أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوَاْ إِلاّ إِيّاهُ ذَلِكَ الدّينُ الْقَيّمُ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة يوسف(٣٩-٤٠)]، **ثم إنّ يوسف -عليه السلام- أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلْع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: {أَأَرْبَابٌ مّتَفَرّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهّارُ} أي: الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه، ثم بيّن لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جهل منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله.**

قوله: {يَا صَاحِبَيِ السّجْنِ}، نسبهما إلى السجن باعتبار أنهما يقيمان فيه، ولا إشكال في هذا، يقال: أصحاب النار، أصحاب الجنة، وما أشبه ذلك، فقوله: {أَأَرْبَابٌ مّتَفَرّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهّارُ}، أرباب متفرقون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الذوات، في الصفات، في العدد، في كل ذلك أرباب متفرقون، {خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهّارُ}، و"خير" أفعل التفضيل ليس على بابه؛ لأن "خير" تأتي بمعنى التفضيل، كما هو معلوم، كما قال ابن مالك:

وغالباً أغناهم خير وشر*** عن قولهم أخير منه وأشر

لكن هنا ليست على بابها، وإنما المقصود بها مطلق الاتصاف؛ لأن أفعل التفضيل تكون بين اثنين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر فيها، فهذه المعبودات من الأحجار والأشجار لا يمكن أن تقارن، أو أن يوجد بينها اشتراك في معنىً مع الله -تبارك وتعالى- أبداً، ففي الخيرية لا وجه للمقارنة حتى يقال: هي خير أم الله الواحد القهار؟.

أما ترى أنّ السيفَ يَنقصُ قدرُه *** إذا قيل إنّ السيفَ أمضى من العصا

ثم قال لهم: {مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاّ أَسْمَآءً سَمّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ مّآ أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ}، {إِلاّ أَسْمَآءً}، يعني هي ليس لها حظ من الإلهية والربوبية سوى أنكم سميتموها بهذه الأسماء التي لا تغير من الحقائق شيئاً، أنتم أضفيتم عليها أسماء الآلهة، وذلك لا يصيرها آلهة، فهي أسماء لا حقيقة لها ولا نصيب لها من هذه المعاني التي تضمنتها، كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: إذا سُمى قشر البصل لحماً، فإنه لا يتحول إلى لحم، وإذا سُمى التراب خبزاً فأكله، فإنه لا يكون خبزاً بهذه التسمية، وهكذا أيضاً في سائر الأشياء، فالتسمية لا تغير من الحقائق، فهذه عبارة عن أحجار وأشجار، فإذا سموها بأسماء الآلهة، وعدّوها آلهة، فهي مجرد أسماء سموها هم وآباؤهم، {مّآ أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ} أي: حجة.

ولهذا قال: {مّآ أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ} أي: حجة ولا برهان، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال تعالى: {ذَلِكَ الدّينُ الْقَيّمُ} أي: هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} أي: فلهذا كان أكثرهم مشركين، {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}.

ولما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما فقال: {يَا صَاحِبَيِ السّجْنِ أَمّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبّهُ خَمْراً وَأَمّا الآخر فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطّيْرُ من رّأْسِهِ قُضِيَ الأمْرُ الّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} [سورة يوسف(٤١)].

يقول لهما: {يَا صَاحِبَيِ السّجْنِ أَمّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبّهُ خَمْراً} وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك؛ ولهذا أبهمه في قوله: {وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ} وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة؛ لأن الرؤيا على رِجل طائر ما لم تُعبر، فإذا عُبرت وقعت.

وروى الثوري عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لما قالا ما قالا وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئاً، فقال: {قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ}، وحاصله أن من تحلَّم بباطل، وفسره فإنه يُلزم بتأويله، -والله تعالى أعلم-، وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معاوية بن حيدة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الرؤيا على رِجل طائر ما لم تُعبر، فإذا عُبرت وقعت))[1].

{وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ} [سورة يوسف(٤٢)].

ولما ظن يوسف -عليه السلام- أن الساقي ناج، قال له يوسف خفية عن الآخر -والله أعلم- لئلا يشعره أنه المصلوب قال له: {اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}.

لا يلزم أن يكون قاله خفية؛ لأن التعبير واضح جداً أن الذي يعصر خمراً هو الذي يسقِي، والثاني يصلب فتأكل الطير من رأسه؛ لأنه قال: {أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ}، وهو سيفهم مباشرة أنه هو المراد، ومثل هذا لا يخفى إطلاقاً، {وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا}، الظن يأتي بمعنى العلم، وعلى هذا: كثير من أهل العلم سلفاً وخلفاً على أن يوسف -عليه الصلاة والسلام- علم أنه سينجو، وعبّر بالظن عن العلم، كما قال الله -عز وجل-: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَاقُو رَبِّهِمْ} [سورة البقرة(٤٦)]، أي: يتيقنون ويعلمون، فأحياناً يطلق الظن على الطرف الراجح، فيقال مثلاً: أظن كذا، يعني بحسب الغلبة؛ لأن القسمة كما هو معلوم رباعية، فطرفان: الظن، والوهم، والشك في الوسط -وهو استواء الطرفين-، واليقين -وهو ثبوت العلم وتحققه-، فهذا الطرف المرجوح يقال له: وهم، والطرف الراجح يقال له: ظن، والمستوي يقال له: شك.

الظن والوهم وشك محتمل*** لراجح وضده وما اعتدل

هذه ثلاثة أشياء، أعلاها اليقين، فلا يمكن أن يكون تعبير يوسف -عليه السلام- من باب الظنون التي تصيب وتخطئ، وبعضهم حمله على ظاهره، فقال: المقصود به الظن، أي ما يترجح عنده وإن لم يقطع به، والأول أقرب، -والله أعلم-، ولما ظن يوسف -عليه السلام- أن الساقي ناجٍ قال كما قال الله: {وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}.

يقول: اذكر قصتي عند ربك، وهو الملِك، فنسي ذلك الموصَى أن يذكّر مولاه الملِك بذلك.

يقول: ذكِّر الملك، يعني الملِك الأكبر ما هو العزيز، وإنما ملك مصر، اذكر له شأني، قل له: يوسف في السجن مظلوم، الرجل رأينا منه كذا وكذا وكذا، يعني مما رأوا من إحسانه، {اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}، تركوه في السجن ونسوه فيه، {اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}، باعتبار أن هذا قريب من الملك، هو ساقي الملك، فهذا من اتخاذ الأسباب، والرب في قوله: {اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ} أي: عند سيدك، فالرب يتأتي بمعنى السيد.

وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن.

هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: {فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ} عائد على الناجي، كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد.

---

١ - رواه أبو داود برقم (٥٠٢٠)، كتاب الأدب، باب ما جاء في الرؤيا، من حديث أبي رزين -رضي الله عنه-، وابن ماجه برقم (٣٩١٤)، كتاب تعبير الرؤيا، باب الرؤيا إذا عبرت وقعت فلا يقصها إلا على وادّ، وأحمد في المسند (٢٦/١٠٠)، برقم (١٦١٨٢)، وقال محققوه: حديث حسن لغيره، من حديث أبي رزين -رضي الله عنه-، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥٣٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ} يعني: أنسى الشيطان هذا الرجل الذي نجا، أنساه أن يذكر يوسف -عليه الصلاة والسلام- عند الملك، وهذا قال به كثير من أهل العلم، والمعنى الثاني الذي تحتمله الآية: "أنساه" أي أنسى يوسفَ -صلى الله عليه وسلم- الشيطانُ أن يذكر ربه، فعاقبه الله -عز وجل- بالبقاء هذه المدة الطويلة في السجن، بمعنى أنه توجه إلى هذا الملِك وأراد الخلاص منه، ولم يتوجه إلى الله -تبارك وتعالى-، وكان ينبغي أن يعتمد عليه، دون أن يلتفت إلى أحد سواه، هكذا قال بعض المفسرين، فلما حصل هذا، أي الالتفات إلى هذا المخلوق كان نتيجة ذلك أن بقي يوسف -صلى الله عليه وسلم- مدة طويلة في السجن، والآية تحتمل المعنيين، يقول: {وَقَالَ}، يعني يوسف، فالضمير يرجع إليه، {لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ} فالضمير في قوله: {لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا}، يرجع إلى هذين السجينين، والقائل هو -يوسف عليه السلام-، {اذْكُرْنِي}، والياء هنا ياء المتكلم -كما هو ظاهر- ليوسف -عليه الصلاة والسلام-، {عِندَ رَبِّكَ}، وكاف الخطاب لهذا الساقي، {فَأَنسَاهُ} الضمير يحتمل أن يرجع إلى هذا الساقي أو يرجع ليوسف -عليه الصلاة والسلام-، {فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ}، فإذا جعلناه يرجع إلى يوسف -عليه الصلاة والسلام- فالمعني: فأنسى الشيطانُ يوسفَ -صلى الله عليه وسلم- ذكر ربه، يعني أن يتوجه إلى الله، فتوجه إلى هذا المخلوق بأمر يجوز أن يطلبه بلا إشكال، وهذا من اتخاذ الأسباب المباحة {فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ}.

وأما البِضْع فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع، وقال وهب بن منبه: مكث أيوب -عليه السلام- في البلاء سبعاً، ويوسف -عليه السلام- في السجن سبعاً، وعذّب بختنصر سبعاً.

البضع: بعضهم يقول: من واحد إلى أربعة، وقيل: من ثلاثة إلى سبعة، وقال ابن جرير -رحمه الله-: إنه من الثلاثة إلى التسعة إلى العشرة، ولا يزيد على العشرة، ولا يقل عن الثلاثة بحال من الأحوال، وقيل: من الثلاثة إلى الخمسة، فهذا الذي يدور عليه عامة أقوال أهل العلم في تفسير البضع، وبهذا نعرف أن قول من قال: إن يوسف -عليه الصلاة والسلام- بقي أربع عشرة سنة في السجن، وقول من قال: إنه جلس اثنتي عشرة سنة فيه إشكال؛ لأنه بقي بضع سنين؛ لأن هذا التعبير للرؤى كان عند دخوله للسجن، في أول الأمر، فلا يقال بأن هؤلاء العلماء ذكروا معنى البضع باعتبار أنه مثلاً من الثلاثة إلى التسعة أو إلى العشرة، وأنه جلس قبل أن يقول له: {اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ} مثلاً لمدة سنتين فيكون المجموع اثنتي عشرة سنة، -والله أعلم-؛ لأن تعبير الرؤيا وقوله: {اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}، كان في وقت دخول أو عند دخول السجن، -والعلم عند الله -عز وجل-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} [(٤٣-٤٩) سورة يوسف].

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف -عليه السلام- من السجن معززاً مكرماً، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحزاة وكبار دولته وأمراءه فقص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأنها {أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ} أي: أخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه، {وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ} أي: لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها -وهو تعبيرها-، فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتيين اللذيْن كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر بعد أمّة، أي مدة، وقرأ بعضهم {بعد أمَه} أي: بعد نسيان، فقال لهم، أي للملك والذين جمعهم لذلك: {أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ} أي: بتأويل هذا المنام، {فَأَرْسِلُونِ} أي: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام فبعثوه فجاءه، فقال: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا}، وذكر المنام الذي رآه الملك.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ} [(٤٣) سورة يوسف]، عبر الرؤيا من العبور، ومنه: عبر النهر، أي: أنه بلغ إلى شاطئه، فتعبير الرؤيا: ذكر تفسيرها ومعناها وما تئول إليه.

قوله: {أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ} الأضغاث: جمع ضغث وهي الأخلاط.

قوله: {بَعْدَ أُمَّةٍ} أي: بعد مدة من الزمان، ولفظ الأمة يأتي بمعانٍ متعددة، ومنها المدة الزمنية، وقرأ بعضهم: {بعد أمَه} أي: بعد نسيان، وهذه القراءة ليست متواترة، وهي مروية عن بعض السلف كابن عباس وعكرمة، وأما القراءة المتواترة فهي التي نقرأ بها {بَعْدَ أُمَّةٍ}.

فعند ذلك ذكر له يوسف -عليه السلام- تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذكر يوسف –عليه السلام- تعبير الرؤيا من غير تعنيف للفتى بسبب نسيانه، ومن غير امتناع، ولم يقل: أنتم فعلتم وفعلتم، وتعبير هذه الرؤيا التي يتوقف عليها حياة أمة بأكملها، فماذا لو بقي الناس على سجيتهم في الإنفاق والازدراع، ثم جاءهم هذا القحط سبع سنين؟ فقد يكون ذلك فيه هلاكهم المستأصل، لكن الله -عز وجل- أنقذهم بيوسف -عليه الصلاة والسلام-.

بل قال: {تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً} أي: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض.

{تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً}، يحتمل أن يكون المراد بـــ {دَأَباً} أي: كما هو دأبكم وعادتكم التي كنتم عليها، وهذا المعنى الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وقال بعضهم: {تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً} أي: دائبين، وقال بعضهم: إن قوله: {دَأَباً} يرجع إلى السنين السبع.

ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر.

البقرات السمان ترمز للسبع السنين المخصبة، والسبع السنبلات الخضر ترمز للسبع السنين المخصبة، والعجاف والسنبلات الصفراء التي قد التوت، ترمز للسنين العجاف.

ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين، فقال: {فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ} أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب، فادخروه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه.

يتركوه في سنبله حتى لا تأتيه الآفات التي تتلفه كالسوس وغيرها، قال: {إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ}، عبّر بالأكل؛ لأنه هو المقصود.

إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان؛ لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: {يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ}، ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك {عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ} أي: يأتيهم الغيث: وهو المطر وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه، وسكر ونحوه.

معنى قوله: {يَعْصِرُونَ}، أي: ما يعصرون على عادتهم من الزيت، وهذا هو الظاهر المتبادر، وقال بعضهم: إن معنى {يَعْصِرُونَ} أي: يحلبون، وهذا وإن كان يقال في لغة العرب إلا أنه قليل، وليس ذلك بالظاهر المتبادر، وتحمل معاني القرآن على المتبادر الأكثر والأغلب في الاستعمال، وقال بعضهم: {يَعْصِرُونَ} أي: ينجون ويحصل لهم النجاة، وهذا قليل في الاستعمال فلا يفسر به مثل هذا الموضع، والله تعالى أعلم.

وقوله: {ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} [(٤٩) سورة يوسف]، هذا القدر الذي ذكره يوسف -صلى الله عليه وسلم- ليس في نفس الرؤيا -والله تعالى أعلم- وكأن الله أوحى إليه بذلك، فأخبرهم به زيادة على مضمون الرؤيا التي عبّرها لهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٥٠-٥٣) سورة يوسف]

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه -بتعبير رؤياه التي كان رآها- بما أعجبه وأيقنه، فعرف فضل يوسف -عليه السلام- وعلْمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال: {ائْتُونِي بِهِ} أي: أخرجوه من السجن وأحضروه، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلماً وعدواناً، فقال: {ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ} الآية.

قوله: {ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ} أي: ارجع إلى سيدك، والمقصود بالرب الملِك وليس العزيز، وقوله: {ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ} فلم يقل: فاسأله عن امرأة العزيز، ولم يذكر المراودة، وهذا لربما -والله تعالى أعلم- من أجل أن لا يصرح بذكر هؤلاء فيكون ذلك مستثقلاً في الأسماع أو أن التعبير عنه بمثل هذه العبارة ألطف من ذكر المراودة، أو ذكر امرأة العزيز الذي هو وزيره، ولربما يحرك ذلك نفس العزيز فينتصر لنفسه، فقد سأل عن ألطف ما في هذه القضية التي وقعت له وهو تقطيع النسوة لأيديهن.

قوله: {إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} الرب هو الله لا يصح أن يفسر بالعزيز، وقال بعض أهل التفسير: إن الرب هو العزيز.

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره -صلوات الله وسلامه عليه-، ففي المسند والصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ} [(٢٦٠) سورة البقرة]، ويرحم الله لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي))[١]، وفي لفظ لأحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: {فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} [(٥٠) سورة يوسف]، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر))[٢].

وقوله تعالى: {قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ}، [(٥١) سورة يوسف] إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره، وهو

---

[١] - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل {وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ} (٣ / ١٢٣٣)، برقم (٣١٩٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم (٤ / ١٨٣٩)، برقم (١٥١).

[٢] - رواه أحمد (١٤ / ٢٢٨)، برقم (٨٥٥٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العزيز، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن: {مَا خَطْبُكُنَّ} أي: شأنكن وخبركن {إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ} يعني: يوم الضيافة؟ {قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ} أي: قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف متهماً، والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك {قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ}، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: تقول: الآن تبيّن الحق وظهر وبرز.

معنى {حَصْحَصَ} هو القطع، أي: انقطع الحق من الباطل، وظهر وبان واتضح، ويحتمل أن يكون من الحصة، أي ظهرت وبانت حصة الحق من الباطل، والمقصود بهذا ظهور الحق بعد خفائه.

{أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} أي: في قوله: {هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي}، {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة، {وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي} تقول المرأة: ولست أبرىء نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته؛ لأن {النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي} أي: إلا من عصمه الله تعالى: {إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ}، وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام.

وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية -رحمه الله- فأفرده بتصنيف على حدة، وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف -عليه السلام- يقول: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ} في زوجته {بِالْغَيْبِ} الآيتين، أي: إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز {أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ} في زوجته {بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} الآية.

وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه، والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف -عليه السلام- عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

قوله: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} [(٥٢) سورة يوسف] يحتمل أن يكون هذا القول من كلام امرأة العزيز كما رجحه الحافظ ابن كثير وعزاه لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وقال به طائفة من السلف والخلف، وهو اللائق بسياق الكلام، باعتبار أن الأصل في الكلام الاتصال لا الانفصال، وإذا كان من كلام امرأة العزيز فإنه يحتمل معنيين في عود الضمير الهاء، في قوله: {لَمْ أَخُنْهُ} يحتمل أنها تعني زوجها وهذا اختيار ابن كثير –رحمه الله- ويكون المعنى ليعلم العزيز أني لم أخنه في غيبته، ويحتمل أنها قصدت يوسف -صلى الله عليه وسلم- أي أنها لم تفترِ عليه، ولم تقل عليه غير الحقيقة، وهو غائب في السجن، والمعنى الأول هو الأقرب –والله تعالى أعلم- لأن التعبير بالخيانة في قضية كهذه الأقرب فيها أن المقصود بها الخيانة في العرض.

ويحتمل أن يكون قوله: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} من كلام يوسف -صلى الله عليه وسلم- فيكون هذا من الموصول لفظاً المفصول في المعنى، ويكون المعنى: ليعلم العزيز أني لم أخنه في حال غيبته في أهله، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله –تبارك وتعالى-: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٥٣) سورة يوسف]، إذا قلنا: إن الكلام الأول من كلام امرأة العزيز فهذه الآية من كلامها، وإذا قلنا إن الكلام الأول من كلام يوسف فهذه الآية من كلامه، وهناك قول ثالث وهو أن قوله: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي} من كلام العزيز، وهذا قول بعيد.

قوله: {إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ} يحتمل أن يكون الاستثناء متصلاً، ويحتمل أن يكون منقطعاً ويكون المعنى: لكن من رحم ربي فكف نفسه عن أن تكون كذلك.

{وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [(٥٤-٥٥) سورة يوسف].

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف -عليه السلام- ونزاهة عرضه مما نسب إليه، قال: {ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي} أي: أجعله من خاصتي وأهل مشورتي، {فَلَمَّا كَلَّمَهُ} أي: خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خَلْق وخُلُقٍ وكمال، قال له الملك: {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} أي: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة.

قوله: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي} كان يوسف -عليه السلام- مستخلصاً للعزيز، فطلبه الملك أن يكون مستخلصاً لنفسه ويكون من خاصته وأهل القرب منه وأهل مشورته، ولا يشاركه فيه أحد.

قوله: {فَلَمَّا كَلَّمَهُ}، يحتمل أن يكون المعنى: فلما كلّم الملِكُ يوسفَ -صلى الله عليه وسلم- وهذا الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- وهو اختيار ابن جرير، بدليل أنه قال بعد ذلك: {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ}، ويحتمل أن يكون المعنى: فلما كلم يوسفُ -صلى الله عليه وسلم- الملِكَ أعجبه كلامه، فقال له: {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ}.

فقال يوسف -عليه السلام-: {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [(٥٥) سورة يوسف] مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهل أمره للحاجة.

هذا لا إشكال فيه، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم- للأنصار: ((ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟))[٣]، ثم طلب منهم -صلى الله عليه وسلم-، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- لما أوذي من قبل المبتدعة، احتاج أن يتكلم ببعض الكلام، وذكر لهم ما وقع منه من رد التتار وجمْع الناس الذين كادوا أن يفروا من الشام من التجار والأمراء وغيرهم وتثبيتهم، وذكر مواقفه وعددها؛ لأنه احتاج إلى ذلك، وكذلك الأصل ألا يطلب الإنسان الإمارة، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: ((لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها

---

[٣] - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف (٤ / ١٥٧٤)، برقم (٤٠٧٥)، ومسلم، كتاب الزكـــاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه (٢ / ٧٣٨)، برقم (١٠٦١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها))[٤] لكن لو أنه رأى أن المصلحة الشرعية تقتضي هذا، فله أن يسألها.

وذكر -عليه السلام- أنه {حَفِيظٌ} أي: خازن أمين، {عَلِيمٌ} ذو علم وبصيرة بما يتولاه.

{حَفِيظٌ} أي: خازن أمين يحفظ ما وكل إليه وما تحت يده لا يضيعه، {عَلِيمٌ} أي: بما يتولاه، فجمع بين الأمانة وبين البصر في الأمور والعلم والمعرفة، هذا هو أقرب ما تفسر به هذه الآية.

وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلّات، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له.

ولهذا قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} [(٥٦-٥٧) سورة يوسف].

يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ} **أي: أرض مصر،** {يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء} **قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء.**

أي على كل حالٍ يتصرف، تبوأ من اتخاذ المباءة، وهي المسكن يعني أنه ينزل منها حيث شاء فهو ممكّن بعد أن كان في ضيق الجب وضيق السجن صار بهذه المثابة.

وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار، {نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نشاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} **أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله -عز وجل- السلام والنصر والتأييد،** {وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلأجْرُ الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ}**، يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف -عليه السلام- في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، كقوله في حق سليمان -عليه السلام-** {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} [(٣٩-٤٠) ص]**، والغرض أن يوسف -عليه السلام- ولاه ملكُ مصر الريانُ بن الوليد الوزارةَ في بلاد مصر مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف -عليه السلام- قاله مجاهد.**

ليس هناك دليل على إيمان ملك مصر ويدل على أن ملك مصر لم يؤمن قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ} [(٣٤) سورة غافر]، ولو كان الملِك آمن لتبعه الناس، والناس على دين ملوكهم.

قوله: {وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ

---

[٤] - رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها (٦ / ٢٦١٣)، بـرقم (٦٧٢٧)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها (٣ / ١٤٥٤)، برقم (١٦٥٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَقْرَبُونِ * قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [(٥٨-٦٢) سورة يوسف].

ذكر السدي ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف -عليه السلام- لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها السبع السنين المجدبة، وعم القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب -عليه السلام- وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف -عليه السلام- للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصَلَ من ذلك مبلغ عظيم وهدايا متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان -عليه السلام- لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفى الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر.

فكان من جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوبُ -عليه السلام- عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف -عليه السلام-، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبهته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، {وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ} أي: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم، فذكر السدي وغيره أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميرة، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله.

لا يدل دليل لا في الكتاب ولا في السنة على حصول هذه المحاورة بين يوسف – عليه السلام- وبين إخوته ويحتمل أنه تحدث معهم، سألهم سؤالاً فعرف من خلاله أن لهم أخاً من أبيهم فقال: {ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ} [(٥٩) سورة يوسف].

قال: فمن أين أنتم؟ قالوا من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم، {وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ}، أي: أوفى لهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم، قال: ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم، {أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ} يرغبهم في الرجوع إليه.

قوله: {وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ}، والجَهاز والجِهاز بالكسر، يقال لما يزود به الإنسان، وما يأخذه معه أو يحمله من بضاعة أو متاع أو طعام، أو ما تقتضيه حاله، جهزهم بهذه الأطعمة التي جاءوا يشترونها، وقال لهم: {أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ}، أي: هو ذكر لهم أوصافه الكاملة، أنه يوفي الكيل، وأنه خير المنزلين، أي: خير من يضيّف الناس في هذه الأرض أو في بلاد مصر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يرغبهم في الرجوع إليه، ثم رهبهم فقال: {فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي} الآية، أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة، {وَلا تَقْرَبُونِ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ} أي: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن، ولا نُبقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه، {وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ} أي: غلمانه {اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ}، أي: التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها، {فِي رِحَالِهِمْ} أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون.

أصل الرحل يطلق على ما يستصحبه المسافر معه من أوعية أو مركب يوضع على البعير، ويقال الرحل للمنزل الذي ينزله الإنسان، ومنه قوله: ((صلوا في رحالكم))[٥]، والمراد بالرحل هنا الأوعية التي يوضع فيها الطعام.

قال: {اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ} أي: التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها، {فِي رِحَالِهِمْ} أي: في أمتعتهم، سواءً كانت هذه البضاعة هي عبارة عن نقود، أو كانت عبارة عن أشياء معمولات ومصنوعات.

{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} بها، قيل: خشي يوسف -عليه السلام- أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها.

قوله: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} "لعل" لتعليل، أي: من أجل أن يرجعوا، فخشي -صلى الله عليه وسلم- أنهم إذا رجعوا لا يكون عندهم شيء؛ لأن الناس في جدب وحاجة، فوضع لهم البضاعة من أجل أن يرجعوا، ويحتمل أن يكون وضع لهم هذه البضاعة في رحالهم لكونه عرف أنهم إذا وصلوا وفتحوا المتاع ووجدوا الطعام وقيمته في الرحال عرفوا أن هذا خطأ حصل ولا يحل لهم هذا الطعام، وهذا لا يخلوا من بعد؛ لأنهم إذا احتاجوا للرجوع فلن يرجعوا جمعياً، وإنما يكتفون بإرسال واحد منهم لإرجاع المتاع.

---

[٥] - رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة وكذلك بعرفة وجمْع وقول المؤذن الصلاة في الرحال في الليلة الباردة أو المطيرة (١ / ٢٢٧)، برقم (٦٠٦)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الصلاة في الرحال في المطر (١ / ٤٨٤)، برقم (٦٩٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الله -تبارك وتعالى-: {فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [سورة يوسف(٦٣-٦٤)].

يقول الله تعالى عنهم: إنهم رجعوا إلى أبيهم {قَالُواْ يَأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ} يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين لا نكتل، فأرسله معنا نكتل، وإنا له لحافظون، قرأ بعضهم بالياء أي: يكتل هو، {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} أي: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف: {أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [سورة يوسف(١٢)]، **ولهذا قال لهم: {هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ} أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً}** وقرأ بعضهم "**حِفظاً**" **{وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كِبَرِي وضعفي ووَجْدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده عليّ ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{قَالُواْ يَأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ}**، يقصدون بذلك قول يوسف -صلى الله عليه وسلم-: **{فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ}** [سورة يوسف(٦٠)]، مع أنه أعطاهم في هذه المرة ورد عليهم بضاعتهم، ومن غرائب التفسير ما ذكره بعضهم من أن اسم أخيهم نكتل **{فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ}**، قالوا: اسمه نكتل، وهذا غلط، ومما يدل على أنه غلط القراءة الأخرى التي أشار إليها، وهي قراءة الكوفيين "يكتل"، وقراءة **{نَكْتَلْ}** ليست بمخالفة للقراءة الأخرى، فقراءة الجمهور **{نَكْتَلْ}** أي: مجتمعين، ويحصل لنا ما نطلبه ونقصده من الكيل؛ لأن ذلك قد علق بهذا الشرط أن نأتي به معنا، فأرسله معنا نكتل، وعلى القراءة الثانية: "يكتل" موافق للقراءة الأخرى وإن كان المعنى مغايراً له، لكن ليس بينهما اختلاف تناقض إطلاقاً، فأرسله معنا يكتل، أي يحصل له كيل إضافة إلى الكيل الذي يعطَى لنا، فكل واحد يعطى حمل بعير من الكيل، وقوله: **{فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً}**، قال: وقرأ بعضهم: "حفظاً"، وهي قراءة أهل المدينة، وقراءة الجمهور **{حَافِظاً}**.

{وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَأَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}[سورة يوسف(٦٥-٦٦)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمرَ يوسفُ فتيانه بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم {قَالُواْ يَأَبَانَا مَا نَبْغِي} أي: ماذا نريد، {هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدّتْ إِلَيْنَا}، كما قال قتادة: ما نبغي وراء هذا، إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل، {وَنَمِيرُ أَهْلَنَا} أي: إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا، {وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ}، وذلك أن يوسف -عليه السلام- كان يعطي كل رجل حمل بعير.

قوله: {قَالُواْ يَأَبَانَا مَا نَبْغِي}، نبغي: حملها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- على ماذا نطلب وماذا نريد، وهو الظاهر المتبادر، تقول: ابتغى كذا أي طلب، {مَا نَبْغِي} ماذا نطلب أكثر مما وقع من أن العزيز أوفى لنا الكيل ورد بضاعتنا إلينا؟، فعندنا ما يمكننا معه أن نأتي بكيل آخر إضافة إلى ما حصلناه في هذه السفرة، أو في هذا القدوم على العزيز، فهم مغتبطون بما حصل من العزيز، وما حصل لهم من الرجوع بالطعام، وببضاعتهم التي اشتروا بها هذا الطعام، ويحتمل أن يكون المراد بقولهم: {مَا نَبْغِي} أن تكون "ما" نافية و"نبغي" من البغي: وهو التجاوز والزيادة في الحد، {مَا نَبْغِي} أي: أننا في قولنا في ما وصفنا به العزيز لا نزايد ونتوسع في القول، ولا نصف العزيز بأكثر مما رأيناه، ولا نقول غير الحق، والبغي يأتي بمعنى التجاوز والزيادة والظلم، والمعنى الأول أقرب -والله تعالى أعلم-، {هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدّتْ إِلَيْنَا}، كما قال قتادة: ما نبغي وراء ذلك، قال: {مَا نَبْغِي} أي: إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة -أي: الطعام-، {وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ} من العجائب أن بعضهم فسر البعير بالحمار، فهذا حتى لو كان يوجد قليلاً في لغة العرب إلا أنه لا يفسر به القرآن، فإن القرآن يجب أن يحمل على الظاهر المتبادر الشائع دون أن يحمل على معنى خفي قليل أو نادر في الاستعمال.

{ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا، {قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ} أي: تحلفون بالعهود والمواثيق {لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ}: إلا أن تُغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه، {فلما آتوه موثقهم} أكده عليهم، فقال: {اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}، قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بُداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

قوله: {ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} فسره الحافظ -رحمه الله- قال: "**هذا من تمام الكلام وتحسينه**"، أي: أن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا، يعني أنهم الآن أخذوا من الميرة في سفرهم الأول، بحيث إن كل واحد أخذ حمل بعير ويرون أن هذا لا يكفي، وأنه شيء يسير؛ لأنهم يتزودون بذلك سائر العام، فيقولون: إذا جاء معنا أخونا فإننا نرجع بكيل مثل هذا، فالذي حصل كيل يسير، والمعنى الذي أشار إليه ابن كثير أنه يسيرٌ بالنظر إلى مقابله، فعندما يأتون بأخيهم معهم، فهذا مطلب سهل عند الموازنة، فعبّر عنه بأنه كيل، ولعل الأقرب هو الأول -والله تعالى أعلم-، أقرب من الذي قصده ابن كثير أنه عند الموازنة نأتي به معنا فيحصل لنا ضعف هذا الكيل أو أكثر مع زيادة حمل لأخيهم، فالذي قصده ابن كثير -رحمه الله- أن عند الموازنة المقابل لهذا هو اصطحاب هذا الأخ، فهذا مطلب يسير بإزاء ما نحصل عليه وما يتحقق لنا من هذا السفر، وبعضهم يقول: إن المقصود {ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ}؛ لأنهم قالوا: أرسله معنا نكتل، ثم قالوا: {وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَسِيرٌ}، يكون اسم الإشارة ذلك إلى الكيل الأخير، هذا المشار إليه "ونزداد" كيلاً زائداً لأخينا وهو حمل البعير، {ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} أي: أن هذا الحمل الذي يكون من نصيب أخينا كيل يسير لا يشق على الملِك، ويمكن أنهم قصدوا بقولهم: {ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} أن ما يحصلون عليه في نظرهم يسير فيحتاجون إلى الزيادة عليه بأخذ أخيهم، من أجل أن يكثر، فهذه المعاني تحتملها الآية، واسم الإشارة "ذلك" للبعيد في الأصل، من أهل العلم من النحاة من يقول: إن اسم الإشارة على ثلاثة أنواع: للقريب "هذا"، والمتوسط "ذاك"، وللبعيد "ذلك" باللام، وبعضهم يقول: على درجتين "هذا" و"ذاك وذلك"، وعلى كل تقدير فإن قولهم: "ذلك" يرجع إلى البعيد، فلو ألغينا درجة التوسط فـ"ذلك" يرجع إلى البعيد؛ لذلك تجد أكثر التفاسير على أنه لا يرجع إلى الحمل، أو كيل الواحد منهم {وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ}، يعني لو كان يقصدون نزداد كيلَ بعير لقال: هذا كيل يسير، يعني يرجع إلى القريب، وأكثر الأقوال المتقدمة لا تُرجع إلى هذا الأخير الذي هو كيل البعير، وإنما أعيد إلى ما قبله، فإما أنهم قصدوا ما جاءوا به أصلاً، فقالوا: هذا ما يكفي لسنة، نرجع مرة ثانية، ونأتي بمثله وزيادة حمل بعير لأخينا، وإما أنهم قصدوا أنهم إذا ذهبوا سيأتون بكيل مثل هذا وأن هذا كيل يسير يحتاج معه إلى الزيادة، فطالما أنه يتأتى مع اصطحابهم لأخيهم أن يحصل لهم كيل بعير، فذلك كيل يسير، يعني الذي يعطى لنا كيل يسير، -والله تعالى أعلم-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة يوسف(٦٧-٦٨)].

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب -عليه السلام-، إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد: إنه خشي عليهم العين؛ وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قِيل يعقوب -عليه الصلاة والسلام-: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ} الآية، ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- خشية العين هو الذي عليه عامة المفسرين من السلف والخلف، وبعضهم يقول: إنه قال لهم ذلك؛ لأنه خاف عليهم من الملِك إذا رآهم وقد دخلوا مجتمعين مع ما لهم من الهيئة والكمال والصورة والحسن أن يوصل إليهم أذى، أو أن يتخوفهم على ملكه أو نحو ذلك، لكن الله -تبارك وتعالى- لم يبيّن العلة التي من أجلها قال يعقوب -عليه الصلاة والسلام- ما قال، والمقصود أنه قال ذلك خوفاً عليهم من أمر تخوفه، والأكثر أنه خشية العين، ولا شك أن في الاجتماع قوة، لكن أحياناً يكون على خلاف ذلك، فالأصل أن الاجتماع قوة لكن مقتضيات الأحوال في بعض الأحيان قد تجعل القوة في التفرق وليس في الاجتماع، فقد يكون اجتماعهم إذا دخلوا مجتمعين سبباً لحصول الأذى لهم، والتفرق المقصود به التفرق بالأبدان وليس التفرق بالقلوب، فاجتماع الناس المقاتِلة في الحروب في مكان واحد يكون سبباً لإبادتهم، وإذا تفرقوا كان ذلك أدعى لبقائهم ونكايتهم بالعدو، وليس المقصود التفرق بالقلوب، {وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [سورة الأنفال(٤٦)]، وهذا لا إشكال فيه.

وقوله {مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ} **أي: إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالَف ولا يمانَع.**

فغاية ما هنالك أن هذا من باب بذل السبب، والإنسان مطالب ببذل السبب، ويتخذ ما يمكن أن يحصل به الخلاص، فإذا جاء القدر خلي بين العبد وبين ما قدّره الله -عز وجل- عليه وقضاه، فلابد من وقوعه به،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذا يعقوب -عليه الصلاة والسلام- يتخذ الأسباب، وليس ذلك من باب أنه من الحذر الزائد، أو سوء الظن بالناس، أو الوسوسة أو نحو هذا، فإن هذه الأمور تقع، ووقوعها كثير، وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن أكثر من يموت من أمته بسبب العين، لكن الإنسان قد لا يشعر بهذا، فقد تظهر هذه العين بصورة مرض معروف عند الأطباء، يموت الإنسان منه عادة، وقد يصاب به بسبب العين وهكذا.

{إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا} **قالوا: هي دفع إصابة العين لهم.**

يحتمل أن تكون الحاجة هي دفع إصابة العين، {إِلاّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا}، فيكون الاستثناء متصلاً، "ما كان"، ويحتمل أن يكون منقطعاً بمعنى "لكن"، أي ولكن لحاجة في نفس يعقوب قضاها، ويحتمل أن تكون هذه الحاجة هي أنه أظهر لهم شفقته عليهم، ومحبته لسلامتهم، فقال لهم ما قال، ثم بيّن أن هذا لا يرد عنهم من قضاء الله -عز وجل- شيئاً، لا ينجي حذر من قدر، ولما سئل ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- عن الهدهد وما قيل من إنه يرى الماء وهو في الهواء، يراه تحت الأرض، فقالوا: فكيف يضع له الصبي الفخ ويصطاده؟ فقال: إذا جاء القدر عمي البصر، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله: {قَضَاهَا} يرجع إلى الدخول {إِلاّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا}أي: دخولهم متفرقين، وذلك أنه اطمأن أنهم لن يؤتوا من هذه الناحية التي تخوفها، فلو وقع لهم شيء وقد دخلوا مجتمعين لربما يقول: هذه عين أصابتهم، لكن طالما أنه حصل مقصوده من تفرقهم وما أوصاهم به، فزال ما كان يتخوفه عليهم واستراح من أن يؤتوا من هذه الناحية، لكن يمكن أن يؤتوا من أمر آخر كما حصل مما قصه الله -عز وجل- بعد ذلك مما وقع لأخيهم، فاطمأنت نفسه بهذا الدخول الموصوف بهذه الصفة أنهم لم يؤتوا من قِبل دخولهم، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-.

{وَإِنّهُ لَذُو عِلْمٍ لّمَا عَلّمْنَاهُ} **قال قتادة والثوري: لذو عملٍ بعلمه، وقال ابن جرير: لذو علمٍ لتعليمنا إياه** {وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}.

قوله: {لَذُو عِلْمٍ لّمَا عَلّمْنَاهُ} يحتمل ما ذكر من أنه {لَذُو عِلْمٍ} أي: عمل بعلمه، وإن كان هذا خلاف الظاهر، لكن هذا من باب أن العلم الحقيقي الذي ينفع هو الذي يعمل به صاحبه، ويمكن أن يكون من قبيل التفسير باللازم، وليس من التفسير بالمطابق، يقول: "**وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إياه**"، هذا هو الظاهر المتبادر، وبعض أهل العلم يقول: {وَإِنّهُ لَذُو عِلْمٍ} أي: بأن الحذر لا ينجي من القدر، قال لهم هذا وهو يعلم أن الحذر لا ينجي من القدر، وبعضهم يقول: {لَذُو عِلْمٍ لّمَا عَلّمْنَاهُ} أي: بأن الحذر وبذل الأسباب مطلوب، ولكن هذا أبعد هذه المعاني.

وقوله: {وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}، أي: لا يعلمون ما يعلمه يعقوب -عليه الصلاة والسلام-، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-.

{وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة يوسف(٦٩)].

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والألطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له، وعرّفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس، أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززاً مكرّماً معظماً.

قوله: {آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ}، يذكرون في كتب التفسير أو ما تلقي من الإسرائيليات، أنهم أحد عشر، ويقولون: إنه حينما استضافهم جعل كل اثنين في منزل في ضيافته، وبقي واحد وهو بنيامين، فضمه إليه، وقال له: إني أنا أخوك، الظاهر المتبادر أنه أخبره أنه أخوه يوسف، وبعض المفسرين يقول: ما أخبره بهذا، وإنما قال: {إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ} يعني: اعتبرني أخاً لك، فلا تحزن ولا تبتئس من عملهم ومعاملتهم لك، أو أنا أخوك مكان ذلك الأخ الذي فقدته، لكن الظاهر المتبادر أنه أخبره أنه أخوه، وهنا أشار إلى أنه أخبره أنه سيحتال بحيلة، يقولون: إنه لما قال له: {إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ} أراد بنيامين أن يبقى معه، فقال له يوسف -عليه الصلاة والسلام- ذلك، وأخبره بأن هذا سيزيد في حزن أبيهم ويضاعف ذلك الحزن عليه، وأنه لا يتمكن من أخذه إلا أن يحتال بحيلة ينادى عليه بها، فقال له: لا أبالي بما تفعل، فحصل ما حصل {أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} [سورة يوسف(٧٠)]، إلى آخره، وهذا جواب عن أسئلة ترد هنا، وهي كيف روّع أخاه هذا الترويع، وأخذه على أساس أنه يسترقّه، ولا يجوز ترويع المسلم إلى آخره، بعضهم قال: أصلاً هذا كان باتفاق، وبنيامين يعلم، ويمكن أن يكون ذلك وقع بوحي الله -عز وجل- إليه، أوحى إليه بهذا ففعله، وإذا قال قائل: هذا يترتب عليه عقوق ليعقوب -عليه الصلاة والسلام-، وزيادة الأذى والحزن حتى كف بصره وتضاعفت عليه الهموم والأحزان، فإذا قيل: إن هذا كان بوحي فينتفي هذا الإشكال، وبعض أهل العلم يقول: إن هذه الأمور الله -عز وجل- قدرها ورتبها من أجل أن يحصل له كمال الصبر، فيصل إلى مرتبة الصابرين ثم بعد ذلك يحصل له ما يحصل من عظيم الثواب إضافة إلى حسن العاقبة، فجرى له ما جرى مما قص الله -عز وجل- بعد الامتحان والابتلاء، كما امتحن الله -عز وجل- إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- بأن يذبح وحيده، وفلذة كبده ابتلاءً وامتحاناً، فالله -عز وجل- يبتلي أولياءه، وعلى قدر مقامهم وإيمانهم، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سُئل أي الناس أشد بلاء؟ فقال: ((الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه،...))[1]، على قدر دينه إن كان دينه صلباً شدد عليه في البلاء، والله المستعان.

{فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِمْ مَّاذَا تَفْقِدُونَ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ}[سورة يوسف(٧٠-٧١)].

لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية، وهي إناء من فضة -في قول الأكثرين-، وقيل: من ذهب، قال ابن زيد: كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزّة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد، وقال شعبة عن أبي

---

١ - رواه أحمد في المسند (٧٨/٣)، برقم (١٤٨١)، وقال محققوه: إسناده حسن، والحاكم في المستدرك (٩٩/١)، برقم (١٢٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٣)، وفي صحيح الجامع برقم (٩٩٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: صواع الملك، قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكُّوك، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد.

ثم نادى منادٍ بينهم: {أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ}.

الجَهَاز والجِهاز، فهذا الذي يعطونه من الطعام يطلق عليه أنه جهاز {فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ}، فالبضاعة التي يحملها الراكب، أو المؤن التي يحملها كل ذلك يقال له جهاز، {جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ}.

والمكُّوك هو عبارة عن مكيال يختلف من بلد لآخر، ويتفاوت فليس له مقدار محدد، ويطلق على وعاء واسع من الوسط يضيق من الأعلى يشرب به، وقول: {صُوَاعَ الْمَلِكِ}، وفسر الصواع بأنه كان يشرب فيه، والصواع يقال لما يشرب فيه، قال بعضهم: كل إناء يشرب فيه يقال له: صواع، ومن ذلك قول الشاعر:

نشرب الإثم بالصواع جهاراً *** وترى المسك بيننا مستعاراً

والإثم أي: الخمر.

فما يشرب به يقال له: صواع، وما يكال به يقال له: صواع.

والعير: يطلق على الإبل المرحولة التي وضع عليها الطعام أو المتاع أو الأحمال، وبعض أهل العلم يقول: العير يطلق على كل ما يحمل الطعام أو المتاع من الإبل أو البغال أو الحمير، بل بعضهم يقول: هي الحمير، وهذا لا دليل عليه.

فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: {ماذا تفقدون قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ} أي: صاعه الذي يكيل به، {وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ} وهذا من باب الجعالة، {وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ} وهذا من باب الضمان والكفالة.

في قوله عزوجل-: {وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ} دليل على أن الأحكام تستنبط من القصص والأخبار وليس من الأمر والنهي الصريح، أو الآيات التي سيقت لبيان الأحكام فقط، فهذه الآية ما سيقت لبيان حكم، ولكن يؤخذ منها جواز الجعالة وجواز الكفالة.

وقوله: {جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ}، هذه الحيلة التي احتال بها يوسف -صلى الله عليه وسلم- من أجل أن يُبقي أخاه عنده، فوضع الصواع في رحل أخيه كما في قول: {ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} فقوله: "ثم" تدل على التراخي، ولهذا يقال: إنه تركهم حتى انطلقوا وفارقوا البلد أو كادوا، ثم بعد ذلك أرسل في أثرهم من أجل أن تكون الصورة محكمة، يعني لا يشك هؤلاء بأن المسألة مدبّرة، يعني لو أنه مجرد ما وضع هذا وهم عنده قال: {أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ}، فإنهم سيقولون كيف عرفت؟ ومتى فقدته؟ لكن تركهم، فكأنهم بحثوا عن صواعهم، ثم لما فقدوه استدركوا وتبعوا هذه العير، ونادى المنادي {أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ}، فأطلق عليهم أنهم سارقون مع العلم بأنهم ما سرقوه، ويمكن أن يقال: إن الذي نادى لم يكن يعلم أن القضية كانت بمكيدة كاد بها يوسف -صلى الله عليه وسلم- ليتمكن من أخذ أخيه، فهو نادى بحسب ظنه، وبعض أهل العلم يقول: ما حدد هنا المفعول، ما قال: إنكم سرقتم الصواع، أو لسارقون لصواع الملك، وإنما أطلق، وأن يوسف -عليه الصلاة والسلام- حينما قال للفتى هذا، فتنادى به، قصد يوسف -عليه الصلاة والسلام- ما فعلوا من أنهم وقع منهم ما يمكن أن يقال عنه: إنه سرقة، حيث إنهم أخذوه من أبيهم وهو صغير وألقوه في الجب، وفعلوا به ما فعلوا، فقال: {إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ}، فأطلق عليهم هذا الوصف، وفي ضمن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا الوصف يمكن أن يكون ما وقع من الصواع بحسب ظن الفتى الذي نادى بذلك {إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ}، فالله تعالى أعلم.

{قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَآء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}[سورة يوسف(٧٣-٧٦)].

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: {تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنّا سَارِقِينَ} أي: **لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا؛ لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، أنّا** {مّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنّا سَارِقِينَ} أي: **ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان:** {فَمَا جَزَآؤُهُ} أي: **السارق إن كان فيكم** {إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ}.

يُحمل: ما جزاؤه، على السارق، ويحتمل أن يكون ما جزاؤه، أي سرقة الصواع، إن كنتم كاذبين.

أي: أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ {قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}، **وهكذا كانت شريعة إبراهيم -عليه السلام-، أن السارق يُدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف -عليه السلام-.**

قوله: {قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ}، جزاؤه: مبتدأ، وخبره يمكن أن يكون الجملة الشرطية بحيث يكون الخبر هو الشرط والجواب، وقوله: {فَهُوَ جَزَاؤُهُ} خبر، ويحتمل أن يكون الخبر {مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ}، ويكون قوله: {فَهُوَ جَزَاؤُهُ} من باب التأكيد والإيضاح وزيادة التقرير، والمعنى أن جزاء من وجد في رحله فإنه يجازى هو دون أحد سواه، من وجد في رحله فإن الجزاء يختص به دون أن يؤخذ به أحد آخر، لا يجني أحد على أحد، الذي تجدون عنده هذا الصواع في رحله فإنه يتحمل العقوبة منفرداً مختصاً بها دون البقية، والجزاء عندهم حينما حكموا بهذا {فَهُوَ جَزَاؤُهُ} أي: أنه يجازى بذلك بشريعتهم، شريعة يعقوب -عليه الصلاة والسلام-، بل شريعة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قالوا: إنه يُسترقّ سنةً، يسترقه المسروق منه سنة، وبعضهم قال: يسترقه وأطلق، وأما في شريعة الملك فإنه يضرب، ويؤخذ منه الضِّعف، ضعف ما سرق، ولا يسترقّ؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} يعني في شريعة الملك، لو طُبق عليه قانون الملك فإنه سيضرب ويغرم ثم يذهب معهم، ولن يتمكن من أخذه وإبقائه عنده، لكن هم نطقوا بألسنتهم وقالوا: {جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ} هذا المعمول به عندنا وهذه شريعتنا، فأخذهم بها، فلما جاءوا يريدون الخلاص ويريدون أن يدخل واحد مكانه في هذا، قال: {مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ}، فهذا {جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ} -والله أعلم-.

وهذا هو الذي أراد يوسف -عليه السلام-؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي: فتشها قبله توريةً، {ثُمّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ}.

هذا من حسن التدبير، ومن كيده لهم، أو من كيده لأخذ أخيه، ما بدأ بوعاء الأخ على أساس أنه ما يحصل لهم شك، فبدأ بأوعيتهم وأخّر هذا، ويذكر بعض المفسرين، أنه كان يفتش فحينما لا يجد شيئاً في رحل من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فتشه يستغفر، فلما بقي بنيامين قال: أما هذا الصغير فلا يحصل منه شيء، فأصروا هم من أجل إظهار البراءة، وأن يطمئن الطرف الآخر من أنه لم يحصل منهم سرقة، فأصروا إلا أن يفتش الأخير: بنيامين، فلما فتح رحله فإذا به الصواع، وهذا ليس له مستند إلا الإسرائيليات.

{ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ} فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالى: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} وهذا من الكيد المحبوب، المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

قوله تعالى على لسانهم: **{جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ}** أي: جزاء السارق أن يؤخذ هو دون أحد سواه، نطقوا بالحكم واختاروا شريعة يعقوب، أو شريعة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، فكان ذلك إلزاماً لهم بما أجراه الله -عز وجل- على ألسنتهم فليس لهم أن يحتجوا بعد ذلك بحجة يتصلون بها من هذا الحكم، وكان ذلك سبباً لتمكنه من أخذ أخيه **{مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ}** أي: في شريعة الملك، و"ما" هذه نافية، ما كان ليأخذه في شريعة الملك وقانونه؛ لأن قانون الملك ليس فيه أن من وُجد عنده المسروق يصير أمره إلى المسروق منه، إنما يعاقب بالعقوبة المتقدمة ثم يذهب، فلو أعمل فيه قانون الملك لفاته هذا المقصود، -والله أعلم-.

وقوله: {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره، وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه الله تعالى فقال: {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ}، كما قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ} [سورة المجادلة(١١)] الآية، {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله -عز وجل-، وكذا روى عبد الرزاق عن سعيد بن جبير، قال: كنا عند ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله فوق كل ذي علم عليم، فقال ابن عباس: بئس ما قلت: الله العليم وهو فوق كل عالم.

ما ذكره الحسن -رحمه الله-، وقول الإنسان: فوق كل ذي علم عليم، لا إشكال فيه إطلاقاً، والله -عز وجل- صرح بهذا: **{وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}**، ولا يقصد به أن ذلك بإطلاق بحيث يكون فوق علم الله -تبارك وتعالى- ما هو أعلم، وإنما المقصود من الخلق، فوق كل ذي علم عليم، فإذا قالها الإنسان وأطلقها في مناسبة من المناسبات أو من غير مناسبة، فهذا لا تحفظ فيه إطلاقاً، ويوجد في كثير مما يذكر في المنهيات أن بعض العبارات تؤخذ وتوضع في بعض كتب المنهيات، ويقال: لا يسوغ أن يقال كذا، على أنه من المنهيات اللفظية، وهذا ليس على إطلاقه، فمنه ما ليس بمنهي أصلاً، ومنه ما يحتاج إلى تفصيل، إن قصد به القائل كذا فهو منهي، وإن قصد به القائل كذا فهو صحيح، بحسب قصد القائل.

وكذا روى سماك عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم، وهكذا قال عكرمة، وقال قتادة: وفوق كل ذي علم عليم، حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بُدئ، وتعلمت العلماء، وإليه يعود، وفي قراءة عبد الله: "وفوق كل عالم عليم".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ} [سورة يوسف(٧٧)].

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين: {إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ} يتنصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعلَ كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف -عليه السلام-.

قوله على لسانهم: {إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ} يقصدون بذلك يوسف -عليه الصلاة والسلام-، وبعض المفسرين يقول: إن يوسف كان في صغره عند عمته، وأنها قد أحبته محبة عظيمة، فطلبه أبوه بعد ذلك، ولم تصبر على فراقه، وكانت هي أكبر من يعقوب، وكانت منطقة إسحاق -عليه الصلاة والسلام- عندها باعتبار أنها الكبيرة، فقد كان في شريعتهم أن الوارث هو الأكبر، والمنطقة ما يتمنطق به الإنسان مما يضع فيه السلاح أو نحو هذا، فوضعتها تحت ثيابه، ثم بعد ذلك ذكرت أنها فقدتها، فنظروا فوجودها معه من أجل أن تأخذه عندها، كما فعل يوسف -عليه الصلاة والسلام-، فظنوا أنه سرقها وهو صغير، وهذا لا دليل عليه، وبعضهم يقول: إنهم قصدوا بذلك أنه في صغره وجد عند جده لأمه صنماً من ذهب فأخذه فكسره، فعيره إخوانه بذلك، وهذا لا دليل عليه، وبعضهم يقول: إنهم قصدوا بهذا أنه قد سرق قلب أبيهم، وهذا خلاف الظاهر، والأقرب -والله تعالى أعلم- أنهم كذبوا عليه بهذا، وهم فعلوا أكبر من الكذب، فعلوا به ما فعلوا، وهذا القياس الذي قاسوه هو من أبطل القياس، فلا علاقة بين سرقة أخيه كما زعموا وبين سرقة هذا، ولا توجد علة جامعة، والقياس كما هو معلوم هو إلحاق فرع بأصل في حكم في علة جامعة بينهما، ولا يوجد علة، حتى ما يسمونه بقياس غلبة الأشباه مثل قياس الخيل على الحمير في عدم وجوب الزكاة مثلاً بحكم الشبه الظاهر، هذا القياس باطل لا يعول عليه، فكيف بهذا.

وقوله: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ} يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: {أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ} أي: تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يبده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ}، قال: أسر في نفسه {أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون}.

قوله: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ}، المشهور وهو الظاهر المتبادر أنه أسر الجملة التي بعدها، يعني لمّا قالوا هذا قال في نفسه: {أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ}، ويحتمل أن يكون أسرها في نفسه ليس المقصود هذه الجملة، أسرها في نفسه يعني كأنه تلقى هذه التهمة ولم يبدِ لهم رداً ولا إنكاراً، وإنما كظمها في نفسه وسكت، سمع منهم شيئاً كرهه ولم يرد هذه التهمة وإنما أبقاها في نفسه وتحملها ومضت، ويحتمل أن يكون {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ} بمعنى أنه أجل الجواب، لم يجبهم في ساعته وإنما أجل ذلك إلى أن قال لهم فيما بعد: {هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ} [سورة يوسف(٨٩)]، يعني حينما جاءوا إليه فيما بعد وقالوا له: {مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ} [سورة يوسف(٨٨)].

والضمير في قوله: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ}، بعض العلماء قال: إنما أسرها يوسف في نفسه عندما تلقى هذه التهمة وكظمها، ولم يرد عليهم، ولا إشكال في مثل هذا التعبير، وقيل: يعني أسر في نفسه قوله: {أَنتُمْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{شَرٌّ مَّكَانًا}، من باب الإضمار قبل الذكر، كنى عنها بالضمير ثم ذكرها بعد ذلك، ولم يقل: فأسر يوسف في نفسه قوله: {أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا}، فلو قالوا: {إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ} وانتهى الكلام وما ذكرت الجملة التي بعده كان يقال: {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ} أي: لم يجبهم في الحال وإنما أجّل ذلك، أو كظم ذلك وتحمله ولم يرد عليهم، لكن حينما قال: {أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا} يكون ذلك تفسيراً للضمير الهاء في قوله: {فَأَسَرَّهَا}، وهذا معنى الإضمار قبل الذكر.

{قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ} [سورة يوسف(٧٨-٧٩)].

لما تعيّن أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم {قَالُواْ يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً} يعنون وهو يحبه حباً شديداً، ويتسلى به عن ولده الذي فقده، {فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ} أي: بدله يكون عندك عوضاً عنه، {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} أي: العادلين المنصفين، القابلين للخير، {قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ} أي: كما قلتم واعترفتم: {إِنَّآ إِذاً لَّظَالِمُونَ} أي: إن أخذنا بريئاً بسقيم.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} قال: "**أي من العادلين المنصفين القابلين للخير**"، يمكن أن يفسر على ظاهره، فهو أحسنَ إليهم غاية الإحسان، أوفى لهم الكيل وأحسن ضيافتهم، فقالوا: نراك من المحسنين فأحسن إلينا بدفع بنيامين لنا، ثم من لطيف تعبيره أنه قال لهم: {مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ} ولم يقل: معاذ الله أن نأخذ إلا من سرق، فلم يتهمه بالسرقة ولم يصفه بذلك.

{فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [سورة يوسف(٨٠-٨٢)].

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك {خَلَصُواْ} أي: انفردوا عن الناس، {نَجِيًّا} يتناجون فيما بينهم، {قَالَ كَبِيرُهُمْ} وهو روبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله.

بعض أهل العلم يقول في قوله: {كَبِيرُهُمْ} أي: في السن، وبعضهم يقول: في الرأي والقدر والمنزلة، ولهذا اختلفوا فيه هل هو فلان أو فلان، فمن نظر إلى أنه الأعقل والأرجح رأياً، ذكر من كان معروفاً بهذه الصفة، ومن نظر إلى أن الكبير إذا أطلق فالأصل أنه كبير السن قال: إنه روبيل، -والله تعالى أعلم-، ولا فائدة في تعيينه، فهذا من المبهمات التي سبق الإشارة إلى أنه لا فائدة من تحديد المسمى بذلك.

قال لهم: {أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ} لتردنه إليه فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه {فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ} أي: لن أفارق هذه البلدة {حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي} في الرجوع إليه راضياً عني، {أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي} قيل: بالسيف، وقيل: بأن يمكنني من أخذ أخي.

وذلك بأن يقاتلهم حتى يستخلصه، أو يقضي الله -عز وجل- ما شاء، وهذا فيه بعد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}، ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذراً لهم عنده، ويتنصلوا إليه ويبرءوا مما وقع بقولهم.

قوله -عز وجل-: **{فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا}**، استيأسوا: يعني فقدوا الأمل من أن يرجعه إليهم، والسين والتاء في استيأسوا للمبالغة، وقوله: **{ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا}** يعني: بما علمنا من استخراج الصواع من وعائه، ويحتمل أن يكون **{وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا}** أي: حينما قيل لنا: **{فَمَا جَزَآؤُهُ}**، فشهدنا بما علمنا من شريعتك من أنه يؤخذ السارق دون غيره، فنحن لا نستطيع أن نقول غير هذا، والأقرب -والله تعالى أعلم- هو القول الأول.

وقوله: {وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ}. قال قتادة وعكرمة: ما علمنا أن ابنك سرق، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً، إنما سألَنا ما جزاء السارق؟

قوله: **{وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ}**، بعضهم فسر الغيب بالليل، قالوا: إنهم كانوا نياماً فسرق، وهذا فيه بعد وشيء من التكلف، وقيل: **{وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ}** أي: أن ذلك وقع في وقت غيابهم عنه، ما كانوا معه، فقالوا: **{وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ}**، والذي قاله **قتادة وعكرمة**: "**ما علمنا أن ابنك سرق**" أي: لم يكن ذلك بحضرتنا حتى نكفه عن ذلك، فهذا توجيه هذا القول، والقول الآخر: "**قال عبد الرحمن بن زيد: ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً إنما سألَنا ما جزاء السارق؟**"، أخبروه بحكم السارق عندهم؛ لأنه سألهم عن ذلك فقالوا -ولم يكن عندهم علم بما حصل-: **{مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ}**، فتبيّن فيما بعد أن هذا قد وقع منه ما وقع، فأخذ بهذا الحكم، وقوله: **{وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ}** أي: ما كنا نعلم أنه سيقع منه ذلك حينما أخذناه منك، فنحن طلبنا أخذه من أجل أنه منع منا الكيل، ولا نعلم ما تصير إليه الأمور في عواقبها، وهذا لعله هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، وقيل: **{إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا}**، يعني نحن نتحدث عن الظاهر، وجد الصواع في رحله، هل سرق حقيقة أو ما سرق، أو كيف وقع هذا، هذا عند الله -عز وجل-، لكن نحن نشهد بحسب الظاهر، وهذا معنى تحتمله الآية، لكن ما ذكرته آنفاً أقرب منه -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول غير ذلك.

{وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا} قيل: المراد مصر، قاله قتادة، وقيل غيرها، {وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا} أي: التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

وقوله: **{وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا}** أي: اسألهم عن صدقنا وأمانتنا؛ لأنهم كانوا يشاهدون ذلك، فهم شاهدوا هذه الواقعة، ويعرفون حقيقة ما حصل، فإذا سألهم أخبروه، فلم يكن ذلك كذباً من أولاد يعقوب كما كذبوا في المرة الأولى، -والله أعلم-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُواْ تَاللّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٨٣-٨٦) سورة يوسف].

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدمٍ كذب: {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}

قال محمد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب -عليه السلام- وأخبروه بما جرى اتهمهم، فظن أنها كفعلتهم بيوسف -عليه السلام- قال: {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}، وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه، وصح قوله: {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}، ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين وروبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية ولهذا قال: {عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ} أي: العليم بحالي {الْحَكِيمُ} في أفعاله وقضائه وقدره.

{وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ} أي: أعرض عن بنيه وقال متذكراً حزن يوسف القديم الأول {يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ} جدد له حزن الابنيْن الحزن الدفين، قال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري عن سفيان العصفري عن سعيد بن جبير أنه قال: لم يُعط أحدٌ غير هذه الأمة الاسترجاعَ، ألا تسمعون إلى قول يعقوب -عليه السلام- {يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق، قاله قتادة وغيره، وقال الضحاك: فهو كظيم كئيب حزين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قول يعقوب -صلى الله عليه وسلم- {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} أي: زينت لكم أنفسكم أمراً، وذكر بعض المفسرين أنه لم يقصد تكذيبهم فيما قالوا من أن بنيامين قد أخذه العزيز، وإنما قصد أمراً آخر وهو شاهدتهم وقولهم: {جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ} [(٧٥) سورة يوسف]، فهذه الشهادة كانت سبباً في أخذ العزيز له، وقال بعضهم: إن إخوة يوسف كانوا سبباً فيما حصل؛ لأنهم طالبوا أباهم أن يأخذوا أخاهم بنيامين معهم.

{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} يمكن أن يكون قد حذف منه المبتدأ فهو خبر، يعني: صبري صبرٌ جميل، ويمكن أن يكون مبتدأ حذف منه الخبر، أي: صبرٌ جميل صبري.

قوله: {يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ} الأسف هو شدة التوجع والحزن على الشيء، والياء في قوله: {يَا أَسَفَى}

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للنداء، كأنه يقول يا أسفي احضر.

قوله: {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} [(٨٤) سورة يوسف] الكظيم هو الممتلئ حزناً، وهو الذي كتم حزنه ولم يظهره، وكظيم صيغة مبالغة على وزن فعيل لكثرة ما وقع ليعقوب من الحزن، وقد ذكر بعض أهل العلم أن الصبر على المصائب لم يكن في شريعتهم كما هو في هذه الشريعة، وهذا فيه نظر، وقد أثنى الله -عز وجل- على الصبر وأهله، ومن ذلك ثناؤه على أيوب –عليه السلام- بقوله: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [(٤٤) سورة ص]، والواقع أن ما حصل من يعقوب -صلى الله عليه وسلم- لا ينافي الصبر؛ لأن حزن القلب ودمع العين لا ينافي الصبر، وقد قال –عليه الصلاة والسلام- {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} والصبر الجميل هو الذي لا جزع معه ولا تسخط، ولهذا أعرض عنهم، وقد أخبر الله عن ذلك فقال: {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ}، ومعنى: {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ} أي: أنه أصيب في بصره.

فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: {تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ} أي: لا تفارق تذكر يوسف.

{تَفْتَأُ تَذْكُرُ} أي: لا تفتأ، وهذا معروف في كلام العرب، فحذف اللام لعدم اللبس.

قوله: {حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا} أي: ضعيف القوة.

الحرض هو ضعيف القوة، أو هو الفساد في العقل أو البدن، إما بسبب كبر السن والهرم، أو بسبب شدة الحزن، أو بسبب شدة التعلق والعشق، فإذا اشتد ذلك بالإنسان لم يعد عقله يحتمله، فيصاب الإنسان في عقله، وقد يصاب في بدنه، وكما يقال: "تردّت عافيته" و"تردّت حاله" و"تردّى عقله" فيهيم ولا يكون في حالٍ سويةٍ في تفكيره أو في قوى بدنه.

وللحب آيات تبيَّن بالفتى *** شحوبٌ وتعرى من يديه الأصابع

قوله: {أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ} يقولون: إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} أي: أجابهم عما قالوا بقوله: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي} أي: همي وما أنا فيه.

من أهل العلم من يقول: إن البث أعظم من الحزن، فالبث هو الحزن الشديد الذي لا يستطيع صاحبه أن يكتمه، أما الحزن فيستطيع صاحبه أن يكتمه، والفرق بين الخوف والحزن أن الخوف هو الإشفاق من أمرٍ مستقبل، والحُزن هو التألم من أمر مضى.

وفسر بعض أهل العلم البث بالحاجة {أَشْكُو بَثِّي} أي: حاجتي، وبعضهم فسر البث بمعنى الهم {أَشْكُو بَثِّي} أي: همي.

{إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي} أي: همي وما أنا فيه {إِلَى اللَّهِ} وحده {وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} أي: أرجو منه كل خير.

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} يعني: رؤيا يوسف أنها صدق وأن الله لا بد أن يظهرها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رؤيا الأنبياء حق، وإن كان يوسف -عليه الصلاة والسلام- رأى ذلك قبل النبوة لكنها كانت رؤيا صادقة، وأبوه عرف ذلك، فهو ينتظر تحققها، وقال بعضهم: كان يعقوب –عليه السلام- يعلم أن يوسف -عليه الصلاة والسلام- حي لم يمت، وقال بعضهم: {وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} من الأجر والثواب للصابرين.

قوله: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ * فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} [(٨٧، ٨٨) سورة يوسف].

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب -عليه السلام-: إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين، والتحسس يكون في الخير، والتجسس يكون في الشر.

ونَهّضهم وبشرهم وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله، أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

أصل التحسس هو طلب الشيء بالحواس، {اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ}، أي: اطلبوا خبره، وما آل إليه أمره.

وقوله: {وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ}، أي: من فرجه وتنفيسه، وأصل الرَوح يقال لنسيم الهواء، وبعض أهل اللغة كالأصمعي يقول: إنه يدل على حركة، فصار ذلك يطلق باتساع على ما يتحرك له الإنسان، ويلتذ به، ويسر بحصوله، وقال بعضهم: {رَّوْحِ اللّهِ}، أي: رحمة الله، وهذه المعاني متقاربة، والله تعالى أعلم.

وقوله: {فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ} تقدير الكلام: فذهبوا، فدخلوا مصر، ودخلوا على يوسف، {قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ} يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام {وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ} أي: ومعنا ثمنُ الطعام الذي نمتاره وهو ثمن قليل، قاله مجاهد والحسن وغير واحد.

قوله: {وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ} مزجاة أي: القليلة الناقصة غير التامة والرديئة، بحيث إنها تعطى للتجار فيردونها ولا يقبلونها ولا يلتفتون إليها لرداءتها وسوء حالها، وعدم تمامها، وقال بعضهم: هي دراهم رديئة قليلة، وقال بعضهم: كانت عبارة عن صوف وسمن، وغير ذلك من الأقوال.

وقوله إخباراً عنهم {فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ} أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، وقرأ ابن مسعود: "فأوفر ركابنا وتصدق علينا" وقال ابن جريج: وتصدق علينا برد أخينا إلينا، وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي -صلى الله عليه وعليهم-؟ فقال ألم تسمع قوله: {فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} رواه ابن جرير.

ما قاله سفيان بن عيينة -رحمه الله- استنباطاً من هذه الآية: إن الصدقة لم تكن تحرم على الأنبياء قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- فيكون ذلك من خصائصه، ولما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة وأراد أن يختبره سلمان الفارسي -رضي الله عنه- فأعطاه صدقة، فلم يقبلها النبي -صلى الله عليه وسلم- ودفعها إلى أصحابه، فلما جاءه بهدية قبلها.

{فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ} أي أكمله لنا، والمعنى: عاملنا بهذه البضاعة بما كنت تعاملنا به سابقاً حينما كنا نأتي بالدراهم الصحاح، أو بالبضاعة الجيدة، {وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا}، تكون هذه الصدقة بالزيادة على الكيل، وقد تكون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بتكميل ما يقع من النقص، ويحتمل أن قوله: {وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا} متعلق بقوله: {فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ} أي: أنك بإيفائك الكيل لنا وقبول هذه البضاعة المزجاة تكون قد تصدقت علينا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يوسف (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُواْ أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّـهَ لاَ يُـضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [(٨٩-٩٢) سورة يوسف].

يقول تعالى مخبراً عن يوسف -عليه السلام- أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته وبدره البكاء فتعرف إليهم، وقال {هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ} يعني كيف فرقوا بينه وبين أخيه {إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ} أي: إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن يوسف -صلى الله عليه وسلم-: **{هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ}** هذا الاستفهام فيه معنى التقرير، وفيه معنى الإنكار، وهذه الآية تدل على أنه حصل لأخي يوسف شيئاً من أذيتهم وتضييقهم، ومن ذلك تفريقهم بينه وبين يوسف، وقال بعض أهل العلم: أي: ما كان يناله بنيامين من الاحتقار والأذى والمعاملة التي فيها شيء من الشدة والقسوة.

ولم يذكر يوسف –عليه الصلاة والسلام- ما فعلوه بأبيهم تعظيماً وإجلالاً لمقام أبيه، ويحتمل أنه لم يذكره لأن ما حصل ليعقوب –عليه السلام- لم يكن مقصوداً وقد أراد إخوة يوسف أن يستأثروا بأبيهم.

قوله: **{إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ}** أي: إنما حملكم على هذا الفعل هو الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، ويحتمل أنه قصد بذلك الاعتذار لهم، يعني: أنكم فعلتم ذلك في حال جهلكم، ويحتمل أن يكون المعنى: أي لم تعملوا بمقتضى العلم، فإن العلم يقتضي العمل والخشية من الله –عز وجل-.

وقال بعض أهل العلم: **{إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ}** أي: بما يصير إليه فعلكم هذا وما يكون من العواقب التي يئول إليها أمركم وأمر يوسف -عليه الصلاة والسلام-، وهو ما يشاهدونه مما حصل ليوسف -عليه الصلاة والسلام- من الرفعة والمكانة، وهم يأتون إليه في حالٍ من الضعف والتذلل، وهذا هو اختيار ابن جرير –رحمه الله-.

والظاهر ــ والله أعلم ــ أن يوسف -عليه السلام- إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأُوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق كما قال تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [(٥-٦) سورة الشرح] فعند ذلك قالوا: {أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ}، وقرأ أبي بن كعب {أَوَأَنْتَ يُوسُفُ} وقرأ ابن محيصن {إِنَّكَ لأنت يُوسُفَ} والقراءة المشهورة هي الأولى؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: {أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي}.

وقوله: {قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا} أي: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا} الآية، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلْق والخُلق والسعة والملك والتصرف والنبوة أيضاً، وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطئوا في حقه.

معنى{آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا} أي: فضلك واصطفاك واختارك.

وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطئوا في حقه {قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ} يقول: أي: لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: {يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}.

التثريب هو التأنيب والعتب، والمعنى لا تأنيب ولا عتب، ويطلق التثريب على التوبيخ والتعيير بالذنب، واللوم عليه.

{اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ * قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} [(٩٣-٩٥) سورة يوسف].

يقول: اذهبوا بهذا القميص {فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا} وكان قد عمي من كثرة البكاء {وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} أي بجميع بني يعقوب {وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ} أي: خرجت من مصر {قَالَ أَبُوهُمْ} يعني: يعقوب -عليه السلام- لمن بقي عنده من بنيه {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ} تنسبوني إلى الفند والكبر، روى عبد الرزاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ولما فصلت العير قال: لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال: {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ} قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام، وكذا رواه سفيان الثوري وشعبة وغيرهما عن أبي سنان به.

وقوله: {لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير: تُسَفِّهون، وقال مجاهد أيضاً والحسن: تهرمون.

قوله: {لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ} أي: تضعفون عقلي وتسفهونني، وتتهمونني بالخرف وذهاب العقل.

وقولهم: {إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لفي خطئك القديم، وقال قتادة: أي: من حُب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمةً غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله -صلى الله عليه وسلم- وكذا قال السدي وغيره.

المقصود بالضلال الذهاب عن حقيقة ما وقع ليوسف -عليه الصلاة والسلام- أو الذهاب عن الحق في شأن يوسف، حيث قدم يعقوب –عليه السلام- هذا الواحد على هؤلاء المجموعة من الرجال الأقوياء، وليس المقصود الذهاب عن الحق مطلقاً؛ لأنهم لو قالوا هذا لكفروا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [(٩٦-٩٨) سورة يوسف].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والضحاك: {الْبَشِيرُ} البريد، وقال مجاهد والسدي: كان يهوذا بن يعقوب، قال السدي: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب فأحب أن يغسل ذلك بهذا فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً، وقال لبنيه عند ذلك {أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} أي: أعلم أن الله سيرده إليّ، وقلت لكم: {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ} [(٩٤) سورة يوسف].

البشير في هذه الآية مبهم، ولا ينبغِ الاشتغال بمعرفة من هو هذا البشير الذي جاء، فقد قيل: إنه هو البريد، يعني أن يوسف -عليه الصلاة والسلام- أسرع بالبشرى فأرسل بها مع البريد، والبريد أسرع بكثير من القافلة.

فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له: {يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [(٩٧-٩٨) سورة يوسف] أي: من تاب إليه تاب عليه، قال ابن مسعود –رضي الله عنه- وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر.

قال بعض أهل العلم في قوله –تبارك وتعالى- {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ} أن يعقوب –عليه السلام- أرجأ الاستغفار لهم إلى وقت السحر، وقال بعضهم: إنه أرجأ الاستغفار لهم إلى وقت آخر، وقال بعضهم: أراد أن يستأذن من يوسف حتى يعفو عنهم، وهذه الأقوال لا دليل عليها.

وقد قال بعض السلف: هناك فرق بين طلب الشيء من الشيوخ وبين طلبه من الشباب، وذلك أن الله –تبارك وتعالى- أخبر عن يوسف –عليه السلام- أنه قال: {لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [(٩٢) سورة يوسف]، فقد استغفر لهم مباشرة، ولما طلبوا من أبيهم الاستغفار قال لهم: {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ}، وهذا غير صحيح؛ لأنهم لم يطلبوا الاستغفار من يوسف أصلاً، بخلاف أبيهم فقد طلبوا منه ذلك.

{فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [(٩٩، ١٠٠) سورة يوسف].

يخبر تعالى عن ورود يعقوب -عليه السلام- على يوسف -عليه السلام- وقدومه بلاد مصر لمَّا كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أُخبر يوسف -عليه السلام- باقترابهم خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب -عليه السلام- ويقال: إن الملك خرج أيضاً لتلقيه، وهو الأشبه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ} [(٩٩) سورة يوسف]، أي: قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: {ادْخُلُواْ مِصْرَ}، وضمَّنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين، أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط.

ذكر كثير من علماء التفسير أن يوسف خرج لتلقيهم فقال لهم: {ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ}، وقال بعضهم: إنه نصب خيمةً أو مكاناً أو سرادقاً وجلس فيه ينتظرهم، فدخلوا عليه فآوى إليه أبويه، ثم بعد ذلك قال لهم: {ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ} ثم بعد ذلك حصل السجود حينما كان في مجلسه مستقراً على سرير ملكه.

وقوله: {آمِنِينَ} أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط، وقيل: كانوا لا يدخلون مصر إلا بشيء من الخوف والحذر؛ لأنهم ليسوا من أهلها فقال لهم: {ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ} من غير تخوف.

وقوله: {آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ} قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديماً.

قالوا: إن أمه ماتت في نفاس بنيامين، وهذا الكلام لا دليل عليه، وهو خلاف ظاهر القرآن، بل بعضهم تكلف غاية التكلف وقال: لعل الله –عز وجل- أحيا أمه فسجدت، وهذا أيضاً لا دليل عليه.

وقال محمد بن إسحاق، وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان، قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها وهذا الذي نصره هو المتصور الذي يدل عليه السياق.

وقوله: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ}، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: يعني السرير، أي: أجلسهما معه على سريره {وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا}، أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون وكانوا أحد عشر رجلاً، {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ}، أي: التي كان قصها على أبيه من قبل {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا} [(٤) سورة يوسف] الآية.

وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى -عليهما السلام-، فحرم هذا في هذه الملة وجعل السجود مختصاً بجناب الرب -سبحانه وتعالى- هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفي الحديث أن معاذاً -رضي الله تعالى عنه- قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((ما هذا يا معاذ؟)) فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال: ((لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها))[1].

والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم؛ ولهذا خروا له سجداً فعندها قال يوسف: {يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [(١٠٠) سورة يوسف] أي: هذا ما آلَ إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر.

---

[1] - رواه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة (١ / ٥٩٥)، برقم (١٨٥٣)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٧ / ٥٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} أي: صحيحةً صدقاً، يذكر نعم الله عليه {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ}، أي: البادية.

قوله: {يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ}، التأويل هنا بمعنى تحقق الرؤيا، ويأتي التأويل بمعنى التعبير والتفسير ومنه قوله: {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ} [(٣٦) سورة يوسف]، ويأتي التأويل فيما يتعلق بالخبر بوقوع المخبر، وفيما يتصل بالأمر بفعل المأمور به، فمن تأويل الخبر بوقوع المخبر قوله -تبارك وتعالى-: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ} [(٥٣) سورة الأعراف]، يعني وقوع ما أخبر به، ومن تحقيق الأمر قول عائشة -رضي الله عنها-: ((كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن))[٢] يعني: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ} [(٣) سورة النصر].

وقوله: {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ} [(١٠٠) سورة يوسف] ذكر الخروج من السجن ولم يذكر الخروج من البئر، لئلا يجرح مشاعرهم ويؤذيهم؛ لأنهم هم الذين ألقوه في البئر وأما السجن فلم يكن لهم بذلك يد، أو أن المنة بالخروج من السجن أعظم من المنة بالخروج من البئر، فقد خرج من البئر للرق، وخرج من السجن للمُلك.

قال ابن جريج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية، وقال: كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام.

وقوله: {وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ}، أي: من البادية، وقال بعض أهل التفسير: كانوا يسكنون في قرية معروفة يقال لها بدى، فنسبوا إليها، ولم يكونوا يسكنون البادية، وقد قال الله –تبارك وتعالى-: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [(١٠٩) سورة يوسف]، فاحتج بهذه الآية كثير من أهل العلم على أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لم يكونوا من أهل البوادي، وهذا الذي يجعل بعض العلماء يقولون: إن يعقوب وبنيه –عليهم الصلاة والسلام- كانوا من قرية يقال لها بدى، ولم يكونوا في البادية، وهذا خلاف الظاهر المتبادر، والظاهر أنهم كانوا في البادية، ووجودهم فيها -والله أعلم- كان عارضاً ثم انتقلوا.

{مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء} [(١٠٠) سورة يوسف] أي: إذا أراد أمراً قيض له أسباباً وقدّره ويسره.

{مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ} أي: أفسد، وهذا التفسير من جهة المعنى، فالشيطان يحرك الإنسان ويستثيره من أجل أن يوقعه في المحظور.

{إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ} بمصالح عباده {الْحَكِيمُ} في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده.

{رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [(١٠١) سورة يوسف].

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب التسبيح والدعاء في السجود (١ / ٢٨١)، برقم (٧٨٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركـــوع والسجود (١ / ٣٥٠)، برقم (٤٨٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا دعاء من يوسف الصديق دعا به ربه -عز وجل- لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منَّ الله به عليه من النبوة والملك سأل ربه -عز وجل- كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه، قاله الضحاك، وأن يلحقه بالصالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، وهذا الدعاء يحتمل أنَّ يوسف -عليه السلام- قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: ((اللهم في الرفيق الأعلى))[٣] ثلاثاً، ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره.

قول من قال: إن يوسف –عليه الصلاة والسلام- تمنى الموت قول غير صحيح ولا دليل عليه.

{ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} [(١٠٢-١٠٤) سورة يوسف].

يقول تعالى لمحمد -صلى الله عليه وسلم- لما قص عليه نبأ إخوة يوسف وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة {نُوحِيهِ إِلَيْكَ} ونعلمك به يا محمد لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك، {وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ} حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم {إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ} أي: على إلقائه في الجب {وَهُمْ يَمْكُرُونَ} به ولكنا أعلمناك به وحياً إليك وإنزالاً عليك، كقوله: {وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ} [(٤٤) سورة آل عمران]الآية، وقال تعالى: {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ} [(٤٤) سورة القصص]، الآية، إلى قوله: {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا} [(٤٦) سورة القصص] الآية، وقال: {وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} [(٤٥) سورة القصص] الآية.

يقول تعالى: إنه رسوله وإنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [(١٠٣) سورة يوسف]، وقال: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [(١١٦) سورة الأنعام]، كقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} [(٨) سورة الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: {وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ}، أي: ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد {مِنْ أَجْرٍ} أي: من جعالة ولا أجرة على ذلك بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحاً لخلقه، {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة.

---

[٣] - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي -صلى الله عليه وسلم- (٤ / ١٦١٣)، برقم (٤١٧٤)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله عنهم- باب فضل عائشة -رضي الله عنها- (٤ / ١٨٩٣)، برقم (٢٤٤٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com